صفر
الديين
چيهان سرور
رواية
الكتب

إهداء

أهدي هذا العمل

إلى كل مَن يُسوّل له شيطان نفسه أنه ضحية للجميع, فيسعى دون حكمة أو رؤية داعسًا بقدميه فوق الضعيف لتحقيق آماله العريضة.

إلى كل مَن غرّته الحياة من قوة, ونفوذ, وسلطان.

أقولُ لهم ستُكتب النهاية مُحطمة كل الآمال, وستخرجوا منها..

«صفر اليدين»

شكر وتقدير

أشكر والدتي التي لم تتوقف أبدًا عن دفعي لإنهاء تلك الرواية.

ولزوجي ورفيقي، الذي لن أتمكن أبدًا من تقديم الشكر الكافي له على رعايته بعدة طرق حتى أتمكن من اتخاذ خطوة إلى الأمام عند شروق شمس كل يوم جديد.

وإلى صديقتي الدكتورة أمنية شفيق

التي حرصت على دعمي لإنهاء تلك الرواية

داخل قاعة المحكمة

تقف النيابة للمُرافعة:

- سيدي القاضي، لقد تمَّ القبض على القاتل في مسرح الجريمة.. وقد اعترف اعترافًا كاملًا دون أي ضغط بقيامه بها، ومن ثَمَّ قد عُثر على سلاح الجريمة بحوزته.. فقد استغل المُتهم قُدرته وتفوُّقه في الرماية والتصويب، واستطاع أن يقضيَ على ضحاياه بطلقتين نافذتين في رأس كلٍّ منهما، دون أي رحمة أو شفقة تجاه رُفقاء العمر...

وها هي نتيجة الطب الشرعي أمام سيادتكم، جاءت لتُبين لنا تطابق بصمات القاتل على سلاح الجريمة.. وبعد إجراء التحاليل الطبية له؛ ثبت خلوُّ العينة من أي أثر لوجود مخدر، ولم يُعانِ الجاني من أي مرض نفسي أو عصبي قد يسوِّغ تنفيذ تلك الجريمة البشعة! وبسماع أقوال الشهود لم يتبين لنا أي دافع وراء الجريمة.

سيدي القاضي، نحن أمام قضية مكتملة الأركان...

ينتفض الجميع على صوت سيدة تندفع من باب المحكمة مقاطعةً كلام النيابة قائلةً بصوت مرتفع: بل هناك دافع سيدي القاضي...

(1)

جامعة القاهرة.. كلية التجارة عام 2000

داخل المدرج ينظر آدم إلى ساعة يده بتوتر... تهمس نجوى إليه متسائلةً:

- ما بك؟... تنظر إلى ساعتك كل دقيقة!

يميل برأسه قليلًا عليها مجيبًا:

- لم يكن من الضروري حضور تلك المحاضرة... عندي موعد مهم، وها هو الدكتور أراه يستفيض اليوم على عكس عادته؛ فقد تجاوز وقت المحاضرة بنصف ساعة.

قابلت نجوى ردَّه بالصمت والانشغال بمتابعة المحاضرة... فقد منَّت نفسها اليوم بقضاء تلك الساعة معه منفردةً دون مشاركةِ فريدة لهم بعد تغيبها اليوم عن الحضور.. أملت أن تقترب منه.. أن يشعر بها.. لكن الوقت مرَّ في الانتظار داخل عقارب الساعة..

انتهت المحاضرة، وكان أول المغادرين مسرعًا، بعد أن أشار لها بالرحيل.. لم ينتظرها مثلما ينتظر فريدة كل يوم..

لم ينشغل لحالها أو ماذا ستفعل بعد تركه لها بمفردها..

نظرت إلى ساعتها... ما زال الوقت مبكرًا ولا تقوى على حضور المحاضرة القادمة بمفردها، وهي غير مستعدة للعودة إلى منزلها وملاحقة والدتها لها متسائلةً عن سبب رجوعها مبكرة..

لم تشعر بنفسها إلا وقد ساقتها قدماها إلى هذا المطعم المُطل على ضفاف النيل؛ المطعم المفضل لديه.

جلست على طاولته، وأشارت للنادل، وطلبت نفس شطيرته المعتادة يوميًا ونفس شرابه...

تتأمل سطح النيل أمامها وكأنها تراه طافيًا عليه، تخاطبه بقلبها.. تريد أن تصرخ به قائلةً:

"آهٍ من فؤادٍ بنارِ الحب قد اكتوى""هام اشتياقًا إلى لقاءِ مُعذِّبه"

انتبهت نجوى على صوت النادل متسائلًا:

- هل هناك شيء يزعجكِ بالطعام يا آنسة؟

فأشارت له نافيةً.. لم تملك أي شهية للطعام، طلبت منه الفاتورة وخرجت من المطعم.

استقلّت سيارتها وأخذت تدور في الطرقات وهي تتساءل عن سبب تغيب فريدة اليوم، ولماذا لم تخبرها بالأمس! هل أصابها شيء.. أم كانا على موعد مُرتب بينهما؟

اتصلت بها على هاتفها، فجاء صوتها المرح قائلةً:

- أخيرًا تذكرتِني... راهنتُ نفسي باتصالكِ صباحًا، ولكني خسرت الرهان بجدارة.

تلعثمت نجوى قليلًا ثم أجابتها:

- لا لم تخسري الرهان أبدًا، لكن لم يكن معي رصيد، وكنت أنتظر

إعادة شحنه فقط.

- ولكن أخبريني.. لماذا لم تحضري اليوم؟

- اضطررت للذَّهاب مع والدتي في موعد مهم، حيث لم تتمكن من الذهاب بمفردها أو تأجيل الموعد لوقت آخر.

تذكرت نجوى أن اليوم هو الأربعاء آخر أيام الأسبوع في الجامعة، إذن فلن تراه يومين. ستكتوي بِبُعده يومين..

يأتي صوت فريدة مناديًا:

- نجوى.. نجوى.. هل انقطع الخط؟

- لا، لا.. لكن الشبكة ضعيفة قليلًا... أهمُّ شيء أنكِ بخير. في انتظاركِ غدًا في النادي.

اعتذرت فريدة:

- لن يُمكنني الذهاب غدًا إلى النادي؛ فهناك زيارة عائلية.. نلتقي يوم السبت في الجامعة إن شاء الله.

أغلقت نجوى هاتفها وذهبت إلى منزلها لقضاء إجازتها وحيدةً، بلا صديقةٍ وبلا حبيب.

***

في منزل المهندس جمال الدين

تلتفُّ الأسرة حول طاولة الطعام لتناول وجبة العَشاء معًا، بعد تغيُّب جاسر عنهم لفترةٍ طويلة.

ما بين كل دقيقة وأخرى كانت وفاء تربِّتُ على كتفه قائلةً:

- أعددت كل الأطعمة المفضلة لك. من اليوم لن تبتعد عني مرةً أخرى.

يبتسم لها جاسر ويلثُم يدها قائلًا:

- دائمًا سأكون بجانبكِ يا أمي.. لكنكِ تعرفين طبيعة العمل في الشرطة.

تتمتم وفاء قائلةً:

- هذا هو ما كنت أخشاه منذُ إصرارك على الالتحاق بها، ولم يستمع لي أحدٌ..

تلتفت إلى زوجها تؤنِّبه: ألم أقل ذلك وتعجبتَ وقتَها وقلتَ لي: سيظل بجأْنبكِ؟!... أربعة أعوام أقابل ابني في فتراتٍ محددة.

يُنهي جمالٌ الحوار قائلًا:

- وفاء، لقد دعوتُ أسرة المهندس حسن عبد الحميد غدًا على العَشاء بمناسبة انعقاد الشراكة بيننا. اهتمي جيدًا بالتفاصيل، واتركي التفكير في أمور قديمة مرَّت وانتهت.. اليوم جاسر بجانبكِ. اسعدي بوجوده..

ثم انسحب تاركًا الطاولة دونَ أن يُعيرها اهتمامًا.

بدأت الطاولة تهتزُّ من حركة أرجل وفاء الغاضبة. كالعادة يتركها ويرحل.. كالعادة يُلقي عليها أوامره دونَ أي اعتبار لوجودها.

اقترب منها آدم يحتضنها قائلًا:

- أمي لا أرى داعيًا للغضب الآن.. انتهت فترة دراسة جاسر، وأصبح حرًّا. لن يظلَّ بعيدًا عنكِ..

تلعثم جاسر قليلًا قائلًا:

- إن شاء الله أبدأ العمل في مكان قريب لأتمكنَّ من التنقل بينه وبين البيت بسهولة...

واليوم، أصبح هناك هذا الاختراع العجيب. يمكنكِ أن تتصلي بي أي وقتٍ يا أمي..

هيا، أخبريني.. ما قصة هذه الشراكة؟

أجابته وفاء باقتضاب:

- لا أعلم شيئًا من والدكَ إلا وجود شراكةٍ جديدة في الشركة، وزيادة رأس المال. شيء يشبه ذلك. أنت تعلم أن أي استفسار لوالدكَ يصيبه بالضيق. هو فقط يُطلعنا على بعض الأحداث، وعلينا أن نسمع ونفهم بصمت. سنعلم كل شيء معًا في زيارة الغد بإذن الله.

***

في منزل المهندس حسن عبد الحميد

وفي صباح يوم الخميس، كانت نادية تعدُّ نفسها جيدًا لدعوة المساء في منزل المهندس جمال الدين صديق زوجها وشريكه الجديد. لا تعلم متى نشأت بينهما الصداقة! فقد عاشوا كل حياتهم

بالخارج. لم يمرَّ إلا شهران على عودتها هي وزوجها من الخليج. يصيبها الخوف والقلق من أن يكون مجرد شخص طامع في حصيلة ادخار كل الأعوام الماضية. زوجها لا يعرف الأشخاص جيدًا، بل دائمًا ما يظن فيهم الطيبة وحُسن النية، حتى إنه تَعاقد معه دون أن يُخطرها بشيء.. دون أن يرجع لها، رغم أنها شريكته في رأس المال!

انتبهت نادية إلى سماع طرقةٍ على باب غرفتها، فأجابت قائلة:

- ادخلي يا فريدة.

انضمت لها فريدة وهي ترتدي تنورةً منقوشة، وكنزةً رماديةً مصنوعة من الكتان فوقها. تساءلت قائلةً:

- ما رأيكِ؟! سوف أرتدي هذا مساءً.

صرخت نادية في وجهها قائلةً:

- ما هذا؟!!

تلك الملابس تناسب ذهابكِ للجامعة وليس زيارة عشاء عمل. يجب أن تتعلمي كيف تختاري ملابس ملائمةً لكل مناسبة.

تتساءل فريدة بامتعاض:

- لا أعلم كيفية إرضائكِ يا أمي. لا أعلم ما أهمية وجودي في عشاء عمل من الأساس؟! ثم إنني لم أذهب إلى موعدٍ كهذا من قبل كي أعلم ما عليَّ فِعله أو ارتداؤه.

حاولت نادية أن تستعيد رباطة جأشها مرةً أخرى وتخفي توترها

الظاهر قائلةً:

- لكِ كامل الحق يا حبيبتي.. سأذهب معكِ إلى غرفتكِ ونختار الملابس المناسبة معًا.

***

في المساء.. داخل منزل المهندس جمال الدين

في تمام الساعة التاسعة، كان المهندس جمال الدين وزوجته وأبناؤه في استقبال أسرة المهندس حسن عبد الحميد.. وعندها فوجئ كل من فريدة وآدم بأن والديهما معرفة قديمة؛ فتبادلا بعض الجمل التي دلت على صداقتهم في الجامعة.. ولم تكن تلك المفاجأة الأولى، بل كان الحدث الأكبر هو لقاء "وفاء ونادية".

بدأت كل منهما تُحدق في الأخرى، وكأنهما يسترجعان ذاكرتهما؛ ليتذكَّرا بعد دقائق ذكريات الطفولة الأولى

قبل أن تفرقهما ظروف الحياة والسفر منذ أكثر من ثلاثين عامًا.. فما قطعه الأهل في الصِّغَر.. وصله الأزواج في الكِبَر..

اجتمعوا معًا على طاولة الطعام.. يتبادلون الذكريات والضحكات.. يتذكرون نوع الحلوى المفضلة لكل منهم. أول عقاب تعرضت له نادية عندما حاولت أن تُلقن وفاء إجابة سؤال وجَّهه لها مدرس اللغة العربية.. لم يشعروا بالوقت معًا.. شعور بالألفة والمحبة جمع بين الجميع. لم يكن الأمر مقتصرًا على الزوجات، بل توغل نفس الشعور لباقي أفراد الأسرتين، لتنتهي الزيارة قبل بزوغ الفجر بنصف ساعة.

* * *

داخل الجامعة..

صباح يوم السبت، جلست نجوى في قاعة المحاضرات تنظر إلى ساعة يدها.. فلم تحضر فريدة بعدُ ولم يظهر آدم. هل سيتغيبان اليوم أيضًا؟

مرت الدقائق طويلةً عليها حتى ظهرت فريدة بصحبة آدم على باب المُدرج، يتبادلان الابتسامات والضحك معًا.

لمحتها فريدة من بُعد وأشارت لها، وما زال آدم يتأمل خصلات شَعرها البني الداكن وهو يتمايل على ظهرها كراقصة الباليه. يقترب في خطواته منها وكأنه مَلاكها الحارس. لا يأبه بالبحث عنها؛ فقد كان يلاحق فَراشته مع كل درجةٍ من درجات السُّلم...

اشتعلت نار الغَيرة في قلب نجوى عند رؤيتهما هكذا. شعرت بفيضٍ من الدموع يتساقط كالشلال على وجنتيها. جذبت حقيبتها وخرجت مسرعةً إلى الباب العلوي من المدرج للخروج من القاعة.

كادت دموعها تفضح ما يخفيه قلبها عن الجميع. لم تقوَ على التماسك أمامهما، ولم تجد لها مكانًا بينهما.. لم يحاول أي منهما اللحاق بها.. لم تعنِ له يومًا شيئًا.

لن تقوى على المكوث داخل الجامعة... خرجت تستقلُّ سيارتها لتجد سيارة فريدة تصطفُّ بجانب سيارته؛ فقد صدق حدسها.. لن يكون مجرد شكٍّ بعد ذلك، بل أصبح حبُّهما لبعضهما يقينًا.

أغلقت نجوى هاتفها المحمول واستقلّت سيارتها ذاهبةً لا تعرف إلى أين وجهتها، ولكنها تعلم فقط أن عليها الرحيل.

***

(2)

داخل المُدرَّج

أخذت فريدة تقفز درجات السُّلم تحاول اللحاق بها، ولكنها كانت آخر من خرج من الباب الخلفي قبل أن يدخل الدكتور إلى القاعة ويتم إغلاق كافة الأبواب..

وقفت فريدة ضائعة. رأتها تبكي. لم يكن تخيُّلًا، بل يقينًا.. لكن ماذا حدث؟! لماذا هُرعت بعد أن أشارت لها؟ ماذا دهاها؟!

جلست على مقعدها بجانبه، ثم همس لها متسائلًا:

- لِمَ كل هذا القلق؟ سنجدها في الخارج بعد المحاضرة تنتظرنا.

رمقته بنظرة عاتبة:

- تنتظرنا بعد تركها للمحاضرة هكذا؟ رأيتها تبكي يا آدم!

أجابها بتململ:

- من المحتمل أن يكون هناك مَن هَاتَفَها وعرفت منه أمرًا ما أزعجها.

انزعجت من برودته قائلةً:

- وإذا استقبلت خبرًا سيئًا، ألم يكن الأفضل أن نكون بجانبها؟

قلب شفتيه غير مكترث:

- لكنكِ حاولتِ اللحاق بها ولم تستطيعي.

حاولت فريدة الاتصال بها أكثر من مرة، لكنَّ هاتفها كان مغلقًا.

تشعر بالذنب تجاهها؛ فهي ترى حبها له في عينيها، ولا تقوى أن تصارحها بافتضاح أمرها..

من المؤكد أنها شعرت بالغَيرة من قدومهما معًا. تفضحها نظرتها له وغَيرتها عليه.. هل ظنت أنهما كانا على موعد؟ لا بد أنها شعرت بالألم.. نظرت إليه بغضبٍ محدثةً نفسها: وماذا عنه؟ ألا يرى عِشقها؟!

همست متسائلةً:

- آدم، هل كانت نجوى بخير يوم الأربعاء الماضي؟

ابتسم لها ساخرًا:

- كيف لي أن أعرف؟!

- ألم تتقابلا معًا؟

أجابها بحدةٍ ونفاد صبر:

- يوم الأربعاء كان موعد وصول جاسر، وكنت قلقًا خوفًا من التأخير عن موعده، فلم أنتبه لحالتها المزاجية، وتركتُها بعد المحاضرة الأولى، لكني أرى أنكِ تعطي للأمر أهمية كبيرة يا فريدة.. ساعتين فقط ونتصل بها وتطمئنين عليها.

سألته بتردد:

- لا تشعر بالقلق عليها؟!

مدَّ شفتيه باستخفاف قائلًا:

- علام أقلق؟ لم يحدث لها شيء.. ستكون بخير.

***

صفَّت سيارتها على ضفاف النيل في مكان غير مأهول بالمارة..

أحكمت غلق السيارة عليها وتركت لدموعها العنان. تركتْها تفرُّ من مُقلتيها كفرار العصفور من محبسه..

تبكي بنحيب وتدير أمامها جهاز مشغل الأغاني على أغنية

مش هستنى لحد ما تيجي تحن عليا

مش هستنى لحد ما يخلص دمع عنيا

مش هستنى واضيع عمرى شوية شوية

أنا مش ليل مستني النور

أنا مش طير بجناح مكسور

عمر الحب ما كان مغرور

عمر النار ما هتصبح جنة

بعد مرور عدة ساعات لا تعرف عددها، كففت دموعها، واتصلت بوالدها في الخارج قائلة:

- صباح الخير يا أبي.

أجابها والدها بقلق؛ فليس من عادتها الاتصال في هذا الوقت المبكر:

- حبيبتي، ما بكِ؟ هل أنتِ ووالدتكِ وإخوتكِ بخير؟

أجابته بوهن وحُزن:

- بخير، ولكني في حاجة إلى أن أسافر لقضاء بعض الوقت معك.. أنا مفتقدة وجودكَ بجانبي.

- حبيبتي، لم يتبقَ على نهاية العام الدراسي إلا شهر ونصف، فكيف لكِ السفر الآن؟

ثم... لم يكمل جملته، بل سمعت أصواتًا عدة محيطة به تتحدث معه، فتحدث على عجلةٍ من أمره قائلًا:

- حبيبتي، سأتصل بكِ لاحقًا. أنا في الموقع الآن ومنشغل جدًا،

ثم أغلق الهاتف سريعًا قبل أن يستمع إليها.

أغلقت الهاتف.. وجلست في سيارتها صامتة.. فلا حبيبَ شَعرَ بها.. ولا صديقة صانت مَشاعرها.. ولا أبَ كان لها السند وقتَ الألم.

انتهت المحاضرة، وأسرعت فريدة تبحث عن نجوى، ولكن صَدق حَدسها ولم تجدها بالخارج. التفتت إلى آدم قائلة:

- ليست هنا.. لا بد أنها تركت الجامعة وذهبت.

تمتم آدم مُعربًا عن تعجُّبه:

- لا بد أنها تلقت مكالمة وذهبت. في الغدِ سنعرف ما حدث لها.

عاتبته فريدة قائلة:

- ننتظر للغد؟!!

خذلها بكلماته كما خذل نجوى في مشاعرها، وقبل أن تستمع إلى كلامه انسحبت قائلة:

- سأذهب.

حاول توقيفها قائلًا:

- لم تنتهِ محاضرات اليوم..

اكتفت بنظرة عتاب ألقتها في وجهه، وانسحبت وهي تحمل بجانب غضبها منه حُزنها على صديقتها الوحيدة، وما تشعر به من ألم الآن.

حاولت الاتصال بنجوى مرةً تلو الأخرى، حتى إنها لم تشعر باقتراب جاسر منها، واندفعت بسيارتها بغضب وهي تتساءل عن حقيقة غضبها؛ هل هي حقًّا قلقة على نجوى؟ أم أن ضميرها يؤنبها على ما اقترفته اليوم بحقها؟ فهي تعلم مدى حبها لآدم، ولكنها كانت ذلك السكين البارد الذي ذبحها بنصل الغَيرة.

لا تعلم أين تذهب.. تقود سيارتها بلا وجهة تبحث عنها، بلا وعي.. وفجأة، ظهر أمامها شابٌّ رثُّ الملابس، فضغطت بقوةٍ على مَكابح السيارة وتوقفت في الحال، وترجلت من السيارة لتتبين هل أصابت الشابَّ بشيء، لكنها قوبلت بوابل من الألفاظ النابية على لسان ذلك الشاب، ففزعت وانتابها الخوف، وما هي إلا لحظات حتى وجدته أمامها قائلًا:

- تفضلي في سيارتكِ يا آنسة. لم يصبه شيء.

ففغرت فاها وهي تراه واقفًا أمامها قائلة:

- جاسر!!

لم أره أمامي.. بل فوجئت به يُلقي بنفسه أمام السيارة.

ابتسم لها جاسر قائلًا:

- أعلم، ولقد شاهدتُ كل ما حدث..

وقف الشابُّ واتكأ على السيارة قائلًا:

- لعلكَ رأيتَها وهي تصدمني عن قصد، ولا بد أن تدفع لي تعويضًا، أم أنكم تستقلون السيارات لتدهسوا بها البشر بلا ثمن؟!

فتقدم له جاسر قائلًا:

- سنرى الأمر في قسم الشرطة، ومن حُسن طالعك أننا أمام كاميرات البنك. سنطلب منهم تفريغها ونعلم مَن المدعي ومَن الصادق.

تلعثم الشاب وبدأ يتراجع قليلًا، ثم هُرع مسرعًا دون أن يحاول جاسر اللحاق به.. بل التفت إلى فريدة قائلًا:

- كانت محاولة ابتزاز ليس أكثر.

أجابته بامتنانٍ:

- لولا مرورك صدفة في تلك اللحظة لاستطاع ابتزازي دون جهد.

قهقه جاسر بصوتٍ مرتفع وردَّد كلامها قائلًا:

- صدفة! لقد كنتُ أتتبعكِ منذ أن رأيتكِ غاضبة أمام الجامعة، ولم تنتبهي لي، فشعرتُ بالقلق عليكِ.

رفعت أحد حاجبيها قائلةً:

- هل حاولتَ أن تُحدثني؟ لم أركَ حقًّا؛ فقد كنت سارحةً في أمر ما أزعجني.

اتكأ جاسر على باب السيارة وهو يجيبها:

- لاحظت ذلك، ويومًا ما سأعلم سبب انزعاجكِ.. آملًا ألَّا يكون آدم هو السبب.

فتساءلت:

- أراكَ على ثقة مما تقول! هل السبب يعود لكونكَ ضابطًا؟

ابتسم لها واقترب منها هامسًا:

- أعتقد أنه يومًا ما سيكون هناك سبب أقوى من كوني ضابطًا.

ابتسمت ابتسامةً ماكرة:

- سنرى..

وتركته واستقلت سيارتها مرةً أخرى. لم تتذكر نجوى بعدها.. فقط تتذكر تلك الهمسة التي أُطلقت كالسهم النافذ إلى القلب.. تضحك بصوتٍ مرتفع محدثةً نفسها: كيف لكلمةٍ تستطيع أن تغير حالها هكذا؟! شعور لم تختبره من قبل؛ فانتبهت لنفسها لائمةً: ما هذا الهراء

الذي أتخيله؟

ظل جاسر داخل سيارته شاردًا في فريدة، يتراءى له شَعرها العسلي المُنسدل كالشلال على ظهرها.. بشرتها البرونزية.. قَوامها الممشوق.. انتبهَ من شروده على رنين هاتفه ليظهر اسم والده على الهاتف.

***

في النادي، كانت وفاء ونادية على موعدٍ لينفردا معًا في أحاديث مطولةٍ دون مراقبة الأزواج أو أحد من الأبناء..

جلست وفاء تحتسي القهوة وتتساءل:

- هل كانت حياتكِ سعيدةً يا نادية، أم مجرد حياةٍ مثلما أشعر؟

أخذت نادية نفسًا عميقًا وهي تجيبها بشجن:

- أتصدقينني إذا قلتُ لكِ لا أعلم؟ أخذتني المادة من الحياة.

تعجبت وفاء من تلك الكلمات المبهمة وتساءلت:

- كيف ذلك؟ أو بالأحرى، ماذا تقصدين؟

تسترسل نادية في الحديث قائلة:

- بعد التخرُّج عملت في شركة كبيرة، وكعادة الغربة دائمًا تقسم المغتربين قسمين: قسم مفتقد روح الأسرة والعائلة ودائمًا عنده حنين للوطن، وقسم آخر أصابته الغربة بالقسوة.. الحياة بالنسبة له هي العمل والمادة، وللأسف كنتُ أنا وأسرتي من القسم الثاني،

حتى بعد الزواج، لم أتقبل فكرة الإنجاب بسهولة، حتى إنني اكتفيتُ بفريدة فقط، رغم إلحاح حسن عليَّ مرارًا وتكرارًا، لكن بعد رحيل والدي ووالدتي وسفر جميع إخوتي للخارج، شعرتُ بالوحدة وندمتُ على عدم الإنجاب مرةً أخرى.. هذا بالنسبة لي، لكن ما سبب أنكِ لم تسعدي يا وفاء في حياتكِ، رغم وجودكِ بجانب أهلكِ والعائلة؟

تبتسم وفاء ابتسامةً مليئةً بالشجن وهي تجيبها:

- يبدو أن قسوة الحياة ليست حكرًا على المغتربين فقط. يبدو أن القسوة هي أسلوب حياة غير مشروط بالمكان، بل بالبيئة، كما هو الحال معي. جمال لا يعرف في الحياة سوى العمل؛ فكل عائلته وأسرته تكمن في عمله، العاطفة والمشاعر بالنسبة له ليس لها عنوان سوى الضعف والانكسار، حتى إنه شجع جاسر على الالتحاق بكلية الشرطة ليبتعد عني ويشتدَّ - على حدِّ قوله.

لا تتخيلي يا نادية كم أتمنى أن أطمئن على الأولاد ويتزوجوا معي في نفس المنزل؛ كي يرتاح البال وأشعر بدفء وجودهم. أنا أعيش في وحدة قاتلة.

تداعبها نادية قائلة:

- يبدو أن الحسنة الوحيدة للمهندس جمال هو وحسن هي تلك الشراكة التي جمعتنا معًا مرةً أخرى؛ كي نعوض ما افتقدناه على مدار السنوات الماضية.

***

(3)

في منزل المهندس جمال الدين

يستلقي آدم فوق الأريكة ممسكًا بجهاز تحويل القنوات بيده، يحوِّل بين قناة وأخرى غير مهتم، محاولًا التخلص من حالة الغضب المسيطرة عليه منذ أن تركته فريدة في الجامعة دون أن يحاول اللحاق بها. من المؤكَّد أنها تشعر الآن بتخليه عنها.. !

كيف لي أن أتخلى عمَّن ملكت فؤادي وتربعت فوق عرشه؟! لكنها اليوم كادت أن تصارحني بما حاولت أن أتغاضى عن مواجهته منذ سنوات.. هل تظنني لا أشعر بحب نجوى لي؟ الحب ليس بيدي، فما للقلب من سلطان عليه، قلبي يهواها هي فقط.. فكيف لها ألا تشعر بما يحويه قلبي تجاهها؟ كيف لها أن تدفعني إلى غيرها؟!

ألا تشعر بي؟!

ينتبه فجأة من شروده على وجود جاسر أمامه واقفًا يتأمله بصمت؛ فيعنفه آدم بصوت مرتفع:

- ألم يكن بيننا موعد اليوم في الجامعة يا جاسر؟

يتفحصه جاسر بلؤمٍ شديد قائلًا:

- ما بكَ يا أخي؟ لِمَ كل هذا الغضب البادي عليك؟ الأمر لا يستدعي كل هذا الغضب!

يندفع آدم ثائرًا:

- لو كنتُ أنا من فعل بكَ ذلك لكنتَ أقمتَ عليَّ الحدَّ، ولن تكتفي بلومي فقط مثلما أفعل الآن، ثم من أين لكَ كل تلك الثقة أن الأمر لا يستدعي؟! هل خَطَر في بالكَ أنني كنتُ على موعد هام وألغيتُه من أجلك؟

اقترب جاسر من أخيه محاولًا أن يُطفئ ثورة غضبه قائلًا:

- لك كل الحق يا آدم، كان عليَّ أن أتصل بكَ لأخبركَ بعدم استطاعتي أن أحضر بعد أن هاتفني أبي، لكنكَ تعلم ما يصيبنا بعد مكالمة أبيك من ارتباك وتوقف تامٍّ عن اتخاذ أي قرار أو تفكير.

ثم أحاطه بذراعه مستردًّا حديثه:

- أتعلم أنني أخشى غضب والدكَ أكثر من غضب القادة؟!!

فابتسم آدم قائلًا:

- تخشاه في إجازة، فما بالك بمَن يعيش معه طوال الوقت؟!

فضحك كل منهما بصوت مرتفع.. ليتمتم جاسر قائلًا

- علينا بالدعاء للست الوالدة على صبرها وقوة تحملها.

ابتسم آدم متمتمًا:

- بل عليها أن تدعو هي لنا، فقد حظيت بمكانة الصابرين.

فجأة سمع كل منهما صوت غلق باب المنزل بقوة.

ضرب جاسر على جبهته متذكرًا شيئًا ما، وتمتم:

- آدم يبدو أن اليوم ليس يومكَ. نسيتُ أن أُخبرك أن والدكَ اتصل بكَ أكثر من مرة وأنت لم تجب على الهاتف، وطلب مني عند رؤيتكَ أن أخبركَ أنْ تحدثه سريعًا لأمر مهم.

أنهى جاسر كلامه وانسحب بهدوء تاركًا آدم يقابل غضب أبيه منفردًا..

نظر آدم إلى والده ثم وجَّه كلامه لأخيه قائلًا:

- دائمًا تهرب وتتركني أواجه العاصفة بمفردي.

صاح المهندس جمال فيه قائلًا:

- أعتقد أنه لا وقت للمزاح الآن.. أحاول الاتصال بكَ منذ ساعتين. تعالَ معي المكتب..

فتح المهندس جمال دُرج مكتبه وأخرج منه ظرفًا ورقيًّا كبيرًا وسلَّمه إليه قائلًا: هذا الظرف تُسلمه إلى مدير المكتب في الإسكندرية، وبموجب التوكيل الخاص بك سوف تُنهي كافة الأوراق المطلوبة هناك، وكن منتبهًا لهاتفكَ طولَ الوقت، ولا تنسَ أن تخبرني قبل التوقيع على أي ورقة.

أخذ آدم الظرف وبدأ يفحصه ثم تساءل:

- المفروض أسافر إمتى؟

أجابه والده بلوم:

- منذ ساعتين مضتا.. منذ أول مكالمة.. اتفضل اتحرك حالًا.

تمتم آدم بصوتٍ منخفض:

- آسف يا أبي.. نصف ساعة وأتحرك بإذن الله.

وقبل أن يتحرك باغته والده قائلًا:

- أعدَّ حقيبة سفرٍ تكفي أسبوعًا أو أكثر.

لم يملك آدم حق الاعتراض، فهو يعلم أنه الوحيد الذي يخول له الإمضاء عوضًا عن والده بموجب التوكيل، ومن المؤكد أن والده لم يرسله هناك إلا لظروف خاصة.. لكن أسبوع بلا فريدة!!

سَخِر من نفسه قائلًا: ما الفرق بين هذا الأسبوع وبين السنوات الأربع الماضية؟! لن يتغير شيء.. سأظل صامتًا لا أقوى على مصارحتها.. ما دام هذا الحاجز المنيع حائلًا بيننا.. لا بد أن أزيله أولًا كي أستطيع مصارحتها. لا بد أن أواجه نجوى بحقيقة مشاعري تجاه فريدة؛ كي تهدم أيَّ أمل قد بنته في مُخيلتها.

***

في منزل نجوى مساءً

تجلس نجوى في غرفتها منفردة. يصيبها ألم شديد في رأسها من أثر بكائها اليوم. تنضم إليها والدتها متسائلةً:

- هل اتصلتِ اليوم بوالدكِ؟

تجيبها بصوتٍ منخفض:

- نعم.

تقترب منها والدتها وتجلس على طرف الفِراش قائلة:

- أخبرني أنكِ طلبتِ منه أن تسافري إليه؟

- نعم.

- لم يتبقَ على موعد امتحاناتك سوى شهر.. ما السبب؟

انفجرت نجوى في البكاء قائلة:

- يحبها.. رأيتهما معًا اليوم؟

اقتربت والدتها منها وضمتها إلى صدرها وهي تربّت على ظهرها قائلة:

- حبيبتي، ما الجديد في الأمر؟ كنتِ تعلمين منذ فترة، وحاولتُ معكِ كثيرًا أن تنشغلي في أي شيء آخر وتبتعدي عنهما، لكنكِ ظللتِ تعيشين في وهم.. لا بد أن تعلمي جيدًا أن آدم لم ولن يكون نصيبكِ يومًا ما، فلِمَ تعبُ القلب؟! تريدين السفر وتتركين دراستكِ في أهمِّ فترة.. لا بد أن تركزي في دراستكِ. لم يتبقَ أمامكِ إلا شهر ويتحقق حُلمكِ. من الضروري أن تحافظي على حُلمكِ.. استطعتِ كل الأعوام السابقة أن تحتفظي بتفوقكِ على الدفعة لثلاثة أعوام متتالية، ولم يتبقَ أمامكِ إلا آخر درجة كي تصلي لما تمنيته وعايشته معكِ يومًا بيوم.

همست بصوت باكٍ:

- لا أقوى على رؤيتهما مرةً أخرى.. لا أريد أن أتحدث معهما..

لا أستطيع يا أمي.. أشعر أنهما طعنوني بخنجر سامٍّ أصابني بالوهن والضعف..

صمتت والدتها قليلًا ثم قالت:

- لن تري أيًّا منهما طوال هذا الشهر. أعدكِ بذلك.. يمكنكِ أن تذاكري من المنزل، ولن تذهبي إلا يوم الامتحان.. أغلقي هاتفكِ، وفي حالة محاولة أي منهما الاتصال على هاتف المنزل سأخبره بسفركِ إلى والدكِ لمدة أسبوعين أو ثلاثة.

زفرت نجوى تنهيدة متقطعة بعد كلام والدتها معها، وأومأت برأسها موافقة.

ضمتها والدتها برفق وتركتها وقلبُها ينزف على حُزن حبيبتها وصديقتها الوحيدة.

* * *

سافر آدم إلى الإسكندرية لمتابعة أعمال والده، ولكن الأمر استغرق أكثر من عشرة أيام.. لم تذهب نجوى إلى الجامعة، ولم تستطع فريدة أن تتواصل معها بعد أن علمت من والدتها بأمر سفرها إلى والدها..

تكرر حضور جاسر إلى الجامعة طوال تلك الفترة للقاء فريدة، حتى بات يحضر معها بعض المحاضرات بحجة مساعدة أخيه وتسجيل المحاضرات له، وبعد عدة أيام صارحها قائلًا:

- فريدة، الشرطة جعلت مني شخصية صريحة وواضحة.

ابتسمت له فريدة وهي تهزُّ برأسها متعجبة قليلًا، فأكمل حديثه قائلًا:

- أنا معجبٌ بكِ منذ أول لقاء، ومع الوقت أدركتُ أنكِ الفتاة التي أتمنى أن أرتبط بها باقي عمري، والحقيقة.. أتمنى أن أعلم رأيكِ إذا كنتِ موافقة على اتخاذ خطوة حقيقة، أم أن الوقت ما زال مبكرًا؟

تدفقت حُمرة الخجل من وجنتيها مع ابتسامة مرتبكة، ولكنها احتفظت بصمتها.

- موعد سفري خلال اليومين القادمين، ولا أعلم موعد رجوعي. سأتحدث اليوم مع والدي لتحديد موعد مع المهندس حسن إذا كان للأمر أهمية بالنسبة لكِ.

تلعثمت فريدة وتساءلت:

- لماذا تتعجل الأمر؟ يمكنا الانتظار بعد نهاية العام الدراسي.

ابتسم لها متمتمًا بعد أن علم بموافقتها:

- كي يطمئن قلبي.

وفي المساء، أخبر جاسر والده برغبته في الزواج من فريدة، الأمر الذي راق للمهندس جمال؛ ها هي شراكة العمل يتم توثيقها بشراكة النسب، ولم يتأنَّ للحظة، بل رفع سماعة الهاتف في الحال واتصل بالمهندس حسن قبل أن يتشاور في الأمر مع وفاء؛ لتحديد موعد زيارة في اليوم التالي.

وفي صباح اليوم التالي وصل آدم إلى منزله يحمل حقيبته ويصعد

بها إلى غرفته سريعًا؛ كي يستعدَّ للذهاب إلى الجامعة مبكرًا.. افتقدها بشدة.. يريد أن يمتع ناظريه بها.

أمام غرفته قابله جاسر مُرحبًا:

- حمدًا لله على السلامة يا أخي.

- الله يسلمك يا جاسر.

استوقفه جاسر قائلًا:

- سأعدُّ فطورًا لي ولك.. هناك حديث طويل أريد أن أحدثك فيه.

تمتم آدم:

- خمس دقائق وألحق بك.

* * *

على طاولة الطعام في المطبخ

أخذ جاسر يعدُّ كل أطباق الفطور المتاحة في الثلاجة، وهو يُدندن بكلمات أغنية عاطفية..

انضم له آدم متسائلًا:

- أراك في حالة مزاجية لم أرك عليها منذ سنوات.. ما بك؟

التفت جاسر إليه بوجهٍ مبتسم ومشرق قائلًا:

- حُب.

تعجَّب آدم وردد كلمته:

- حُب!! ثم تحدث بتهكم:

لم أتغيب عن المنزل إلا عشرة أيام، كيف حدث ذلك؟! جاسر عدو كلمة "حُب" يصارحني بالوقوع فيه!

جاسر، اترك كل ما بيديك وأخبرني ما حدث لكَ تفصيليًا.

قهقه جاسر متحدثًا:

- كنتُ عدوًا للحُب قبل أن ألتقي بها، ولكن ما أتعجَّب له حقًّا يا آدم، كيف لتوأم عمري أن يخفيها عني طوال السنوات الأربع الماضية؟

نظر آدم له بشفاه مقلوبة وسأله:

- أخفي مَن.. ؟

- فريدة.. لم تخبرني عنها أبدًا.

ارتبك آدم قليلًا:

- ماذا تقصد بـ "فريدة"؟

جلس جاسر على مقعده وبدأ يسترسل في الحديث قائلًا:

- فريدة.. وما أدراك ما صنعته فريدة فيّ!!

هل كنتَ تتخيل أن يأتي يوم ما على "جاسر جمال الدين" يفارقه النوم بالأيام!.. حتى مكالمات والدكَ لم أهتمَّ بها وأنا معها.

تساءل مصدومًا:

- وأنت معها! أين؟!

ضحك جاسر وأجاب:

- أخي الوحيد المجد والمجتهد سافر بفرمان من الوالد، لم يتمكن من حضور بعض المحاضرات، وأنا كأخٍ أكبر بخمسِ دقائق لا أستطيع أن أُقصر مع أخي. قررتُ أن أحضر بعض المحاضرات الهامة كي أستمتع برفقتها.

احتدَّ آدم متسائلًا:

- برُفقة مَن يا جاسر؟.. فريدة؟!!

ابتسم جاسر وأجابه:

- نعم فريدة.. واليوم مساءً موعد الزيارة الرسمية التي حددها السيد الوالد مع المهندس حسن.. لم أخبركَ بمدى سعادة والدكَ يا آدم.. صفقة رابحة بالنسبة له بالتأكيد.

وقف آدم وهو يشعر بوهن وضعف تملَّك منه قائلًا:

- مبروك يا جاسر.. أنا مرهق جدًا.. أحتاج أن أنام لفترة طويلة..

تعجب جاسر قليلًا وتساءل:

- هل غيرتَ رأيك؟ ألن تبدل ملابسكَ للذهاب إلى الجامعة؟

- أشعر بإرهاق شديد، ولا يوجد شيء يستحق أن أذهب إليه اليوم.. قالها واندفع خارج المطبخ متوجهًا إلى غرفته.. يشعر بثقلٍ في قدمه، ويشعر وكأنه مقيدٌ بجنازير من الحديد.. تقيد الحركة وتثقلها.. يشعر بالدمع يترقرق في مقلتيه.

* * *

مرَّ شهر لم يفارق آدم غرفته إلا نادرًا، متعللًا بالدراسة واقتراب موعد الامتحانات.. حاولت وفاء التحدث معه كثيرًا، لكنه كان يرفض أي حديث، بل يرفض وجودها داخل غرفته. كان يخشى أن ينهار أمام حبها له ويخبرها بما يؤلمه. كان يعلم أنها بمجرد أن تنظر إلى عينيه بتمعن فستقرأ ما أخفاه عنها منذ سنوات. لم يقوَ أن يواجه جاسر بحبه لفريدة؛ يعلم أنها لم تبادله نفس المشاعر يومًا، كان الأمر سيبدو أهون بكثير لو ارتبطت بأي شخص آخر غير جاسر أخيه الوحيد.. لن يقوى على رؤيتهما معًا، سيشعر بخيانته لأخيه.. سيظل يحلُم بها ويفكر فيها.. ستظل تعيش معه تحت سقف واحد حتى في غياب جاسر.. لا لن يستطيع.

* * *

حرصت والدة نجوى أن تحيط ابنتها أغلب الوقت. كانت على يقين أن الزمن كفيل بالنسيان، لكنها كانت تريده نسيانًا بلا ندم.. وتفوقها كان هو الهدف الأسمى لها الآن.

وجوده أمامها هو سبب تعلقها به.. شهر واحد فقط وسينتهي هذا الرابط بانتهاء الدراسة. عليها أن تنشغل بدراستها وحياتها القادمة.. من المؤكد أنها ستلتقي بالشخص المناسب في الوقت المحدد؛ فهي تمتلك كل مواصفات الجمال، بجانب التزامها الأخلاقي وهدوئها وصبرها. كان هذا الحديث يدور داخل الأم كلما شاهدت ذبول نجوى أو دموعها تتساقط منها. تملَّكها صراع بين الحفاظ على رباطة

جأشها كأم داعمة، وبين أم تُذبح مع كل دمعة تتساقط على وجنتي ابنتها.

***

لم تشعر فريدة ببُعد نجوى؛ فقد استطاع جاسر أن يمتلك فؤادها بمكالماته اليومية وكلماته الرقيقة.. هدوئه.. احتوائه لها.. استطاع أن يمتلك حياتها رغم سفره وبُعده عنها.

***

امتحانات نهاية العام

وجاء موعد الامتحانات، وموعد لقاء الأصدقاء. ذهبت فريدة إلى الجامعة وهي تحمل قربان براءتها إلى صديقتها الوحيدة نجوى. ذهبت إليها وابتسامتُها تعلو وجهها..

رأتها على بُعد.. أشارت لها بيدها وهي تهرول لها كي تزفَّ لها آخر أخبارها. وقفت نجوى متحجرةً في مكانها، ترى السعادة وقد نَقشت خطوطها على وجه صديقتها الوحيدة وغريمتها في آنٍ واحد.. تراها تهرول ناحيتها كي تزفَّ لها خبر حبها وعشقها لحبيبها.. حبيبها الوحيد.

اندفعت فريدة تحيطها بذراعيها قائلة:

- اشتقتُ إليكِ أكثر مما كنتُ أتصور.. ليس من عادتكِ السفر المفاجئ دون إخباري.

ابتعدت نجوى قليلًا وأجابتها بجفاءٍ واضح:

- كان أمرًا عائليًّا ضروريًّا.

ابتسمت فريدة لها وقالت:

- المهم أنكِ هنا الآن.. طوال الأعوام السابقة كنتِ لي أقرب صديقة.. لكن اليوم أحتاج إليكِ كأخت.

لم تملك نجوى يومًا حقدًا في قلبها تجاه أحد، ولن تملك أن تحقد أو تكره فريدة يومًا؛ فأجابتها قائلة:

- منذ معرفتنا كنتِ بالنسبة لي صديقة وأختًا يا فريدة، فما الجديد؟

أجابتها فريدة بفرحة:

- الجديد أنني خُطبت..

شعرت نجوى بوخزة في صدرها بعد أن أخبرتها فريدة بخِطبتها لآدم.. كانت تعلم، لكنها لم ترد أن تسمع منها.. لم ترد أن تلقى حتفها على يد صديقتها.

قاطعت فريدة أفكارها متسائلة:

- ألن تسألي لمَن خُطبت؟

تلعثمت نجوى قليلًا محاولة أن تنطق اسمه، فسبقتها فريدة قائلة:

- جاسر.. اسمه جاسر جمال الدين، الأخ التوأم لآدم.

صمتت نجوى قليلًا محاولة أن تستوعب ما سمعته للتوِّ، ثم عانقت

فريدة بقوة ثم تركتها ونظرت في عيونها وكأنها تتحقق من وجودها، ثم ضمتها مرة أخرى وهي تبكي وتبكي دون أن تملك التحكُّم في انفعالاتها ما بين فرح وبكاء..

استعادت كل منهما صداقتهما المفقودة منذ فترة طويلة..

طوال فترة الامتحانات لم ترَ فريدة آدم، بل حرصت أن تتجنب لقاءه. أرادت أن تبتعد وتترك الزمن يجمع بينه وبين نجوى.. فكل منهما على بُعد خطوة من الالتحاق بوظيفة في الجامعة.. كل منهما يشبه الآخر. كانت على يقين أن القدر سيجمعهما يومًا ما.

***

(4)

بعد انتهاء العام الدراسي

بدأت فريدة متابعة تجهيزات الزواج تحت إشراف وفاء ووالدتها، وفي غياب جاسر أغلب الوقت..

لم ترغب وفاء أن يكون لها دور فيما يخص ترتيبات الزواج. كان كل ما تهتمُّ به هو تحقيق شرط وحيد؛ ألا وهو زواج جاسر وفريدة معهم في الفيلا.. لم يكن في حقيقة الأمر شرطًا، بل كان رجاءً قابلته نادية وفريدة بقبول وبتفهم..

وبالفعل، تم إعداد جناح كبير في الطابق الثاني خاصٍّ بعش الزوجية. تركت وفاء لفريدة أن تختار ما يطيب لها دون أن تبدي أي رأي أو اقتراح. كان كل ما يشغل وفاء هو إتمام زواج جاسر وفريدة، والاستمتاع بوجودهما معها وبوجود أحفاد لها تستمد منهم الحياة مرةً أخرى بعد أن كُتب عليها أن تعيش وحيدة رغم وجود زوجها وأبنائها بجانبها، لكن هل الوحدة تنتهي بوجود الأجساد أم بوجود الأرواح!!

فكم من ليالٍ مرَّت عليها وحيدةً.. تراه بجانبها، يتقاسم معها الفِراش بجسده، تاركًا روحه رحالة بين المكاتب والمواقع الخاصة بعمله.

لم يتبقَّ على الزواج كثيرًا؛ فقد أوشك منزل الزوجية على الانتهاء. ازداد تردد فريدة ووالدتها على المنزل.. أصبح الأمر يزداد صعوبة

على آدم.. لا يقوى على المكوث معها تحت سقف نفس المنزل.. كان ينتظر موعد التحاقه بالخدمة العسكرية سريعًا، على أمل الابتعاد عنها.

عمل جاسر يحتّم عليه السفر لفترات، وستبقى فريدة هنا معهم.. ولن يقتصر الأمر على ذلك، بل أيضًا ستبدأ بالعمل في الشركة بعد الزواج مباشرة؛ كي تتولى مسئوليتها لمساندة والدها ووالدتها.

مرَّت الأيام وظهرت نتيجة نهاية العام، وكما هو المتوقع استطاعت نجوى أن تحصد المركز الأول كالمعتاد، بينما حصد آدم المركز الرابع. شعرت نجوى بالحزن عليه؛ فلن يتم تعيينه معها بوظيفة الجامعة.. التعيين مقتصر فقط على المركزين الأول والثاني.

جاءت النتيجة كالسهم النافذ في قلب آدم. لم يحصل على أي شيء ممَّا خطط أو حلم به يومًا.

لم يتبقَ أمامه إلا البدء في أوراق الخدمة العسكرية؛ كي يستعيد نفسه مرة أخرى ويبدأ من جديد..

* * *

داخل الجامعة

ذهب آدم لسحب أوراقه، وهناك التقى مع نجوى دون موعد، فتقدمت إليه بخطواتها الهادئة ورقتها المعهودة وقالت:

- صباح الخير يا آدم.

- صباح الخير.

تساءلت:

- أعتقد أنك تسحب أوراق التخرج. صحيح؟

- بالفعل.

أكملت:

- هل قررتَ خطوتكَ القادمة؟

أجابها دون تفكير:

- لا توجد خطوات، أنا أقدم أوراقي للخدمة العسكرية، وبعدها لا أعلم شيئًا.

أصابها الحُزن من قراره، لكنها لم تستسلم، فسألته قائلة:

- لماذا لا تتقدم لإحدى الجامعات الخاصة للتعيين بها؟

تنهد قليلًا وأجابها:

- لن أخطو أي خطوة قبل انتهائي من اختبارات الخدمة العسكرية.

- هل تسمح لي بالمساعدة؟

- كيف؟

- اترك لي نسخة من أوراقكَ وسأقدم أنا لكَ في كل إعلان. أنا على يقين من قبولكَ في إحدى الجامعات.

ابتسم لها قائلًا:

- لا مانع إذا كان الأمر يسيرًا عليكِ، لكنه ليس بأمر إلزامي عليكِ. أي وقت تشعرين بأنه جهد عليكِ.. انسي الأمر.

تمتمت قائلةً:

- جهدٌ وعائق! لا تقلق؛ فهذا أمر محبب لي.

تركته وانسحبت على أمل تكرار اللقاء.

كان عليه أن يقوم بواجباته تجاه أخيه التوأم.. ما بين اختيار بدلة العرس وبعض الترتيبات لحفلة الزفاف... وأخيرًا ترتيبات رحلة شهر العسل الذي أراد أن يفاجئ فريدة بها.

وعلى الجانب الآخر، كانت نجوى تشارك فريدة في ترتيبات العرس وتجهيز العروس، على أمل أن تنال نصيبها من الفرح باقترانها بآدم كما تأمل.

كان هناك العديد من اللقاءات تجمعهما.. لقاءات لا تشبه لقاءات الأمس.. لقاءات تمحو ما مضى وتبدأ خطوات جديدة نحو علاقة جديدة.

في بادئ الأمر، كان الأمر شديد الصعوبة على آدم، لكن بوجود جاسر وبحضور نجوى الناعم، استطاع أن يلتفت إلى ما لم يره من قبل.. لن يستطيع محو ما مضى في لحظات.. ولكن هناك بصيص شعور آخر بدأ ينمو تجاه نجوى، لا يعلم هل هو حُب حقيقي أم هروب!!

***

حفل الزفاف

في حديقة أحد الفنادق الكبرى ذات الخمسة نجوم، وسط جمع غفير من الأهل والأصدقاء.. أطلت فريدة بفستانها الأبيض ذي الذيل الطويل، تتأبط يد والدها المهندس حسن عبد الحميد.. وعلى وجهها تنسدل الطرحة الثُّل.. يتقدم جاسر إليها بخطوات تجمع بين الفرح والدلال ليرفع الطرحة ويقبِّل جبينها ويهديها باقة من الورد.. ويبدآن معًا مراسم حفل زفافهما على دقات الطبول والزغاريد، ووسط فرحة الأهل والأصدقاء.

لم يتمالك آدم نفسه عندما رآها.. دون أن يشعر، اتجه نحو نجوى، وعانق يدها بيده، وأخذ يضغط عليها وكأنه يعلن حُبه لها وحاجته إليها في تلك اللحظات؛ كي تُطيب جُرحًا جَرَحه لنفسه منذ زمن.. جُرحًا لم يكن بسبب مشرط أو سكين.. بل كان بطله الوهم، فأصبح نصلًا حادًّا مزَّق قلبه وهو في المهاد.

لم يشعر إلا بارتجاف يدها بين يده، فنظر إليها محاولًا تهدئتها متمتمًا:

- هل تقبلين الزواج مني؟

كم من أيامٍ وليالٍ قضتها تحلم بتلك الكلمة.. تحلم بهذا المطلب.. لكن اليوم بعد أن نطق بها انتابها شعور آخر.. شعور خفي لا تعلم سببه.. كانت تأمل بطلبٍ نابع من عشق وحب..

لم تستطع أن تجيبه بالرفض أو القبول، ولم تقوَ على سحب يدها من بين يده.. تركتها تجيب بدلًا منها.. تركتها تسبح بين غيام الحب

الخفي.. تركتها تنقل حرارة الحب بين أوردتهما..

كانت كالمندوهة.. حتى بعد انتهاء مراسم الفرح. دلفت إلى غرفتها شاردة لا تجيب على نداء والدتها التي قلقت من هيئة نجوى، ولحقت بها خائفة ومتسائلة:

- ماذا حدث في الفرح جعلكِ تبدين هكذا؟

رمقتها نجوى بنظرة ملتاعة ثم ارتمت في أحضانها قائلة:

- طلب أن يتزوجني.

رددت والدتها اسمه بخوف: "آدم"؟!

تساقطت الدموع من مقلتيها قائلة:

- ومَن غيره يا أمي؟!

أحكمت والدتها ضمها إليها صامتة وهي تربِّت على شعرها سارحة فيما حدث، ثم قالت:

- لا بد أن ترفضي.

ابتعدت نجوى قليلًا وهي تنظر إلى والدتها متسائلة:

- أرفض؟!

أشارت والدتها بالإيجاب.

- برفضه سيكتوي قلبي.

- بل قبولكِ هو الاكتواء الحقيقي.

ثم استرسلت والدتها قائلة:

- يا حبيبتي، ما تشعرين به الآن هو شعور مؤقت سيزول سريعًا مع الأيام، مع انشغالك بالعمل وبمستقبلك وببُعده عن ناظرك. أي امرأة على وجه الأرض إذا تزوجت من رجل وكانت تعلم أنه كان يرغب بالارتباط بأي امرأة أخرى حتى لو لم تكن قريبة منها، ستظل تقارن بينها وبين نفسها، وتتبع نظراته لها، ما بالكِ وأنتِ تعيشين معها في نفس المنزل.. مع كل لقاء وتجمع يومي؟!.. لن تسعدي في تلك العلاقة.. ستكون علاقة سامة تدفعين ثمنها طوال العمر.

انسحبت نجوى من حِضن والدتها، ودلفت داخل فِراشها مرتجفة، تشعر ببرودة في كل أوصالها.. تتدثر بفراشها باحثة عن الدفء، لكن ما من فراش يمكنه بث الدفء للقلوب.

القلب يدفأ بالطمأنينة وبالحب والسعادة.

تركتها والدتها عاقدة العزم على رفض تلك الزيجة بكل ما أوتيت من قوة.. لن تتركها ترمي بنفسها في بحور الحُزن.

لا تستحق حبيبتها هذه الآلام.. بل تستحق أن تنعم بحياة دافئة تشعر فيها أنها ملكة قلب زوجها الوحيدة.. حياة تشعر فيها بالهدوء، حياة بلا صراعات نفسية عقيمة.

انفرد آدم بنفسه داخل غرفته بعد أن أمضى ساعة مع والدته تقصُّ عليه العديد من المواقف التي حدثت أثناء العرس، وهي تضحك ملء شدقيها، غير عابئة بصوتها الرنان، مرددة أن اليوم هو أسعد أيام حياتها، ولن يضاهيه يوم آخر إلا بزواج آدم هو الآخر؛ كي تكتمل

فرحتها.

لم يستطع آدم أن يصارحها بما عرضه اليوم على نجوى؛ فهو لا يعلم.. هل ما فعله صائب، أم مجرد اندفاع ناتج عن مشاعره تجاه فريدة؟

كان على يقين أنه إذا لم يلتقِ بفريدة من قبل لوقع في غرام نجوى؛ فهي تُشبهه في كل شيء؛ في هدوئها، وفي التزامها التعليمي.. في ترتيب خطواتها.. في صبرها وجَلدها.. حتى في صمتها.

عَزَم آدم أن يخبر والده غدًا بأمر رغبته في الزواج من نجوى، طالبًا منه أن يتقدم إلى والد نجوى قبل أن يسافر عائدًا إلى عمله.

سيفاجئ "جاسر" و"فريدة" بعد رجوعهما من شهر العسل بخطبته من نجوى.

وفي صباح اليوم التالي، جلس المهندس جمال الدين يحتسي فنجان قهوته الصباحية في هدوء.. انضم له آدم قائلًا:

- صباح الخير. أريد أن أكلم حضرتك في موضوع.

أشار له والده قائلًا:

- اجلس، وأخبرني بالأمر.

فاجأه آدم بطلبه قائلًا:

- أريد أن أتجوز.

ضحك الأب مقهقهًا وهو يتساءل:

- أعلم أن الغيرة تشبُّ بين الفتيات وليس الرجال.

ابتسم آدم قليلًا:

- إنها ليست بغيرة، بل طلبًا تم تأجيله منذ فترة.

اتكأ والده مائلًا عليه قائلًا:

- أفهم من ذلك أنك تريد الارتباط بفتاة محددة؟

- نعم، نجوى زميلتي أنا وفريدة وصديقتها الوحيدة، والأولى على الدفعة.

وقف والده وأمسك هاتفه قائلًا:

- أعطني اسم والدها ووظيفته ورقم هاتفه، وأنا سأدرس هذا الأمر.

* * *

(5)

انقضت ثلاثة أيام لم يتلقَّ آدم أي رد فيها من والده، ولم يجرؤ على الاتصال بنجوى، كان ينتظر موافقة والده حتى يخبرها بقراره الرسمي بالارتباط بها، لم ينتظر جوابها يوم العرس؛ فهو يعلم ما تشعر به تجاهه. أراد أن يكافئها على فترة حبها له طوال الأعوام السابقة.. أراد أن يتزوجها كي تنال قليلًا من سعادة سيُحرم هو منها مدى الدهر.. لكن يبدو أن الوقت لم يحن بعد. لم يتمكن من سؤال والده مرة أخرى بسبب انشغاله طوال الأيام السابقة.

ثلاثة أيام كانت نجوى فيها محمومة، تذبل كل يوم عن اليوم السابق. لم يفهم الأطباء سبب الداء، لكن والدتها كانت تعلم الداء، رغم اعتصار قلبها، لكنها كانت تعلم أن تلك الحمى ستمضي ويمضي معها سموم الحب المَرضي الذي أصاب ابنتها.. سينتهي آدم يومًا من حياتها وتبدأ حياتها مرة أخرى.

وفي اليوم الثالث مساءً، رنَّ هاتف والدها، ولم يكن رقمًا مسجلًا، لكنه أجاب بهدوء، ليأتي صوت المهندس جمال الدين على الطرف الآخر مُعرفًا بنفسه، طالبًا منه تحديد موعد لقاء يجمعهم إذا تم قبول طلبه بتقدمه لخطبة ابنته الآنسة نجوى لابنه آدم. لم يتمالك الأب نفسه فرحًا. كم كان مشتاقًا لسماع أمر كهذا منذ فترة! كم تمنى أن يسعد بزواج نجوى ويطمئن عليها، وكان كرم الله كبيرًا، فهو لم يكن مجرد عريس، بل هو ابن رجل يشيد الجميع بأخلاقه في مجتمع رجال الأعمال. أراد والدها أن يُسعدها، دلف الأب إلى غرفتها ثم

جلس على طرف فراشها قائلًا:

- هناك خبر جميل سيسعدكِ وينقذكِ من هذه الحُمى التي أصابتك.

نظرت الأم إليه متسائلة، بينما لم تُعِر نجوى أي انتباه لما قاله والدها؛ فلن يكون هناك ما يسعدها إلا آدم ورغبته في الارتباط بها..

سألته والدتُها قائلة:

- ما هو الخبر المفرح؟

ثبَّت الأب نظره على وجه ابنته قائلًا:

- اتصل بي الآن المهندس جمال الدين رجل الأعمال المعروف، صاحب أهم شركة عقارية في الجمهورية في الفترة الأخيرة. التمعت عينا نجوى والتفتت إلى والدها تستمع إليه وهو يستكمل حديثه قائلًا:

- طلب مني تحديد موعد للزيارة من أجل طلب يد كريمتي الآنسة نجوى لنجله آدم.

اندفعت والدتها قائلة بنبرة حادَّة:

- وماذا قُلتَ له؟

تبادلت نجوى ووالدتها النظرات، ثم أجاب والدها قائلًا:

- قلت له إنني مسافر ليومين، وسأتصل به بعد غدٍ لتحديد موعد مناسب.

تحدثت الأم قائلة:

- أرى أنه غير مناسب لنا. الفرق المادي بيننا كبير؛ ممَّا سيصعب على نجوى مواكبة الأمر.

صمتت نجوى، وتساقطت دمعة حارة على وجنتها، لكن والدها قطع تفكيرها قائلًا:

- من الواضح أنكِ تعرفين العريس وأسرته جيدًا.. ماذا تعرفين عنهم يجعلكِ حادةً بهذا الشكل ورافضة أن نلتقي بهم؟

تلعثمت الأم قليلًا؛ فهي تعلم زوجها جيدًا؛ فهو رغم حبه وحنانه على أسرته؛ فإن طبعه الشرقي يطغى عليه، إذا تعلق الأمر بأحد نساء أسرته، فقالت له:

- أعرف آدم كزميل لنجوى وفريدة فترةَ الدراسة، ثم إنكَ وصفتَ شركة والده.. إنها من أكبر الشركات.

قاطعها زوجها ونهض من جلسته وهو يُمعن النظر إليها قائلًا:

- أنا في غرفتي أنتظركِ.. ثم ترك الغرفة.

ارتبكت والدة نجوى وتبادلت النظرات مع ابنتها قائلة:

- لا أعرف ماذا أقول له الآن. ضعفكِ سيوقعنا في مشاكل كثيرة.

انضمت والدتها إلى زوجها في غرفتهما وهي تحاول أن تسيطر على نبرة صوتها؛ كي لا يرتاب في الأمر.

وجدته جالسًا على المقعد، فأشار إليها بالجلوس أمامه قائلًا:

- أخبريني بحقيقة الأمر كاملة يا رجاء. لم أعهدكِ مرتبكة هكذا من

قبل.

جلست رجاء محاولة أن تخفي الأمر، لكنها في النهاية أخذت تقص على زوجها الأمر كله، ونقلت له خوفها من آثار هذا الزواج على ابنتها، مؤكدة أنها فترة بسيطة ستعاني ثم تستعيد نفسها مرةً أخرى.

كَظَم الزوج غضبه وصمت كثيرًا مفكرًا، ثم تحدث إليها قائلًا:

- أربعة أعوام لم تستطيعي أن تُحجمي مشاعر ابنتكِ وهي في بداية ولادتها، والآن بعد أن زال ما كان يقلقها تظنين أنها ستتعافى من هذه العلاقة؟

- وهل من أخلاقنا أن نخدع رجلًا بزوجة تتزوج منه وقلبُها مع رجل آخر؟!

أرى أن ما ستعانيه من ألم ووجع في هذه الزيجة يليق بها. يليق بمَن تركت العنان لمشاعرها تسبح في فضاء رجل غريب عنها.

لا تلومي إلا نفسكِ اليوم وغدًا؛ فما وصلت إليه ابنتكِ اليوم يعود إليكِ؛ فقد نقضتِ عهدكِ معي يوم أن تقاعستِ عن تعليم ابنتنا أن الجامعة هي محراب للعلم وليست مكانًا يليق بترك عنان مشاعرها فيه للغرباء.. ونقضتِ عهدكِ معي مراتٍ ومراتٍ على مدار الأعوام الأربعة الماضية عند إخفائكِ عني كل ما تمرُّ به ابنتنا رغم تواصلي معكِ يوميًّا، ورغم قضاء فترة الصيف كلها معًا.

صمتت رجاء أمام كلماته القاسية؛ فقد كانت تقدر مدى ألمه.

لم يكن خالد زوجًا تقليديًّا منشغلًا بعمله عن أسرته، بل كان منشغلًا

بعمله، مهمومًا بأسرته.. يقضي ساعات العمل ثم يهرول إلى منزله كي يُهاتف زوجته.. يطمئن على أحوالهم طوال اليوم. لم يكن رجوع نجوى والبنات أمرًا هينًا عليه، فلم يعتد بُعدهم عنه، لكنه أُجبر من أجل التحاق نجوى بالجامعة.

لم تتمكن رجاء من الوقوف أمام هذه الزيجة؛ فقد خسرت قبل أن تبدأ في حماية ابنتها.. خسرت أمام ضعف ابنتها.. حزنت عليها وعلى مصيرها في أيامها القادمة.

كانت نجوى تنتظر حُكم والدها في خوف، حتى علمت من والدتها بأنه وافق على آدم رغم غضبه الشديد منها. لم تُلقِ بالًا لغضب والدها بعد موافقته على آدم. كانت تعلم أن الزمن كفيل بنسيان والدها واستعادة ثقته بها مرة أخرى.

وجاء موعد زيارة يوم الخميس..

وفي الموعد المحدد حضر آدم مع والده ووالدته إلى منزل المهندس خالد والد نجوى؛ ليتقدم بطلب يد نجوى إلى ابنه آدم، فسأله خالد:

- أعتقد أن آدم سيلتحق بالجيش الفترةَ القادمة؟

فردَّ عليه المهندس جمال الدين بالإيجاب.

فصارحه خالد قائلًا:

- أنت تعلم بأمر سفري للعمل بالخارج وتركي لزوجتي والبنات بمفردهم هنا، وبما أن آدم سيلتحق بالجيش فإن الزواج لن يتم

قريبًا، وكي يطمئن قلبي وقلبُك سأقرأ معك الفاتحة اليوم، على أن يبقى الارتباط مقتصرًا على ذلك حتى يُنهي آدم فترة جيشه، ثم نبدأ في إتمام الزواج. أنت تعلم أنه ليس من اللائق أن يأتي شابٌّ لزيارة منزلي مرارًا والبيت خالٍ من الرجال. بالطبع أنتَ لا تقبل ذلك على أهل بيتك، وأعتقد أنهما بحكم زمالتهما في الجامعة لم يعد أي منهما في حاجة لمعرفة الآخر، وأثناء ذلك العام ستُعد والدة نجوى مع والدة آدم كافة تحضيرات الزواج؛ كي نُعجل بالزفاف بعد انتهاء فترة الجيش مباشرة..

ما رأيك؟

تبدَّلت ملامح آدم ونجوى، وتبادل المهندس جمال النظرات مع زوجته ثم قال:

- على بركة الله.. لا أرى أي خطأ في كلامك، بل من حقك الحفاظ على سمعة أهل بيتك بين الناس.

تمت قراءة الفاتحة والاتفاق على كل اتفاقيات الزواج، وقدَّمت والدة آدم هدية بسيطة تليق بنجوى عروس ابنها.

***

وأدَ خالد فرحة نجوى في مهدها.. فما عاشت له وانتظرته ما زال بعيد المنال عنها، بعد ما قرره والدها مع والد آدم، بينما سعدت رجاء بكلام زوجها وانتظرت حتى خلا البيت من الضيوف وانفردت به داخل غرفتهما قائلة:

- أصبتَ في رأيكَ يا خالد، ولكني أريد أن أعرف؛ هل ما قلتَه هو السبب الحقيقي؟

جلس خالد على مقعده وهو ينظر إليها بغضب بادٍ عليه قائلًا:

- رغم غضبي الشديد منك ومنها، فإنني قررتُ أن أعطيَ لكِ ولها فرصة أخرى.

في خلال هذا العام سيبعد آدم عن نظرها بحكم التحاقه بالجيش، فإذا شُفيت نجوى من الشغف به -كما تعتقدين- فقد تمت نجاتُها من علاقة ستُصيبها بالحُزن مهما حاولتِ، وإذا لم تُشفَ منه فمحاولتنا بالتفريق بينهما لن تجدي، وسيظل يقف حاجزًا بينها وبين أي رجل آخر تتزوجه.

***

وبحكم العلاقات الاجتماعية للمهندس جمال مع بعض المسئولين وأصحاب النفوذ، كان من السهل عليه أن يطلب تسكين آدم في إحدى ثُكنات التجنيد بالإسكندرية؛ للاطمئنان عليه، وأيضًا للإشراف على متابعة سير العمل في فرع الإسكندرية في كل إجازة.

***

مضت شهور على زواج فريدة وجاسر.. مضت شهور ولم تظهر أي بوادر على فريدة بقدوم طفل يملأ البيت فرحًا ومرحًا..

حتى قلقت نادية من تأخر حمل ابنتها؛ فاتصلت بها قائلة:

- صباح الخير يا فريدة.

جاء صوت فريدة على الطرف الثاني قائلة:

- صباح الخير يا أمي.

- أنتظركِ اليوم الساعة الرابعة. ضروري أن تأتي. هناك مشوار هامٌّ أحتاج وجودكِ معي فيه.

تساءلت فريدة:

- لكن، ألن تخبريني إلى أين هذا المشوار كي أخبر جاسر؟

أنهت نادية الحديث قائلةً:

- أخبريه أنني في حاجة إلى زيارة طبية لإجراء بعض الفحوصات، ثم أغلقت الخط قبل أن تنتظر ردَّ ابنتها.

وفي الموعد المحدد تقابلت نادية مع فريدة عند طبيبة النساء، فسألتها فريدة قائلة:

- هل تعانين من شيء يا أمي؟

نظرت إليها نادية بتعجب قائلة:

- حقًّا، أنتِ لا تستوعبين الأمر! ألم يُصبكِ القلق بسبب عدم حَملكِ إلى الآن؟! ألم تفكري في زيارة الطبيب للاطمئنان؟!

تلعثمت فريدة قليلًا ثم قالت:

- ما زلنا في بداية حياتنا، وما زلنا في عمر صغير. لِمَ العجلة؟!

أنهت نادية الجدال قائلة:

- أريد أن أطمئن عليكِ.

حاولت فريدة أن تُراجع والدتها في طلبها وترفض فحص الطبيبة لها، لكن هيهات أن تملك حق الاعتراض أمام والدتها.

أنهت فريدة الكشف وطمأنتها الطبيبة على صحتها وأنها خالية من أي مانع للإنجاب.. لم يتبقَّ أمام نادية إلا الاطمئنان على زوج ابنتها.

بعد يومين، كانت على موعدها الأسبوعي مع وفاء، وأثناء حديثهما معًا ألقت نادية حجرًا صغيرًا في بِركةٍ راكدة، عندما أخبرت وفاء قائلة:

- هل تعلمين أنني طالبت فريدة أن تخضع للكشف الطبي النسائي منذ أيام؛ كي أطمئن عليها وأطمئنكِ بأنه لا يوجد عندها مانع للحمل.. ما رأيكِ أن نطمئن أنا وأنتِ على سلامة جاسر؟

انتفضت وفاء وثارت قائلة:

- ما الذي تتحدثين عنه يا نادية؟! يبدو أن سفركِ أفقدكِ الكثير من عاداتنا. متى نتدخل في أمر يخصُّ أبناءنا هكذا؟! ثم إنه لم تمر إلا شهور قليلة لا تستدعي كل هذا القلق. لا تستعجلي الأمر واتركيه لله.

قاطعتها نادية قائلة:

- كل شيء متروك لله، لكن لماذا نضيع الوقت؟ لماذا لا نستغل كل دقيقة؟ الكشف المبكر يُمكننا من العلاج المبكر إذا كانت هناك أي مشكلة.

انفعلت وفاء قائلة:

- جاسر لا يوجد به أي عيب. المسألة مسألة وقت ليس أكثر..

ثم انتفضت وفاء من مقعدها وانصرفت.. ولم تُفلح معها محاولات نادية لحثها على الجلوس مرة أخرى، وتركتها ترحل دون أن تودعها.

وفي المساء بعد أن وصل جاسر إلى المنزل، كانت وفاء في انتظاره. أشارت إليه أن يلحق بها في غرفة نومها قبل أن يصعد إلى غرفته؛ فهي تحتاج إليه في أمر ما.

وبعد أن انفردت به في غرفتها سألته:

- جاسر، هل ينتابك القلق لتأخر حمل فريدة إلى الآن؟

تعجَّب جاسر من حديث والدته قائلًا:

- إطلاقًا، لا يوجد أي قلق. ثم إنني أريد أن أستمتع بتلك الفترة من عمري دون أن أكبِّل نفسي بمسئوليات وواجبات تجاه الأطفال الآن.. وأنا ما زلتُ في أول طريق عملي، وأحتاج إلى التنقل من مكان إلى مكان؛ لذا أريد أن أنتظر قليلًا حتى أستطيع رعاية طفل صغير وأتحمل مسئولياته.

لكنها اقتربت منه وطالبته بهدوئها المعتاد:

- لكنني أطلب منك بشكل خاص أن تُطمئنني وتذهب إلى طبيب مختص لمعرفة أسباب تأخر الحمل.

تعجب جاسر من طلب والدته وحاول أن يثنيها عن هذا الطلب قائلًا:

- ما زال الوقت مبكرًا، ثم لماذا لا تذهب فريدة أيضًا.

أيقنت وفاء من عدم إخبار فريدة لجاسر بهذا الأمر قائلة:

- نادية أخذت فريدة وأخضعتها للكشف الطبي النسائي، وهي خالية من أي عائق... هذا ما أخبرتني به نادية اليوم.

صمت جاسر قليلًا وهو يفكر في حديث والدته وفي عدم إخبار فريدة له بالأمر، وعلى جانب آخر لم يرَ والدته بكل هذا القلق والتوتر والغضب والإصرار من قبل، لكنها باغتته قائلة بحزم:

- لا أرى سببًا للاعتراض أو التأخير. عليك بالذهاب إلى الطبيب وعدم إخبار فريدة بالأمر، ولا تخبرها بمعرفتك بأمر ذهابها للطبيب.

تصلَّب جاسر قليلًا وهو يحاول أن يستوعب ما أخبرته به والدته الآن.. لم يتقبل فكرة إخفاء فريدة هذا الأمر عنه..

تركها جاسر وصعد إلى غرفته بعد أن وعدها بتنفيذ طلبها قريبًا.

* * *

(6)

لم ينتابه القلق لحظةً من أمر الإنجاب. كان على يقين من سلامته، لكنه رضخ لرغبة والدته فقط كي تطمئن ويهدأ بالها.

بعد أيام قليلة كان على موعد مع الطبيب لمعرفة نتيجة التحاليل، ذهب واثق الخطى مبتسمًا حتى فاجأه الطبيب قائلًا:

- في حقيقة الأمر، التحاليل التي أمامي تبين أن هناك سببًا يعوق الإنجاب بطريقة طبيعية، لكن مع العلاج لفترة محددة يمكن الإنجاب عن طريق الحَقن المِجهري.

ظلَّ جاسر محافظًا على ابتسامته وعلى رباطة جأشه، ولم يُظهر انفعالاته كما اعتاد في الشرطة، ثم تساءل:

- هل يمكنكَ تحديد نسبة نجاح العلاج وحدوث الحمل؟

أجابه الطبيب دون أي تردد:

- نسبة لا تتعدى الـ20%، لكن كما تعلم علينا أن نسعى حتى وإن كانت النسبة 1%؛ فالأبناء رزق يستحقُّ أن نبذل قُصارى جهدنا من أجله.

أخذ جاسر يسأل الطبيب عن طرق العلاج والفترة المحددة له ومتى يُمكنه أن يبدأ.. وبعد أن أجابه الطبيب عن كل تفاصيل وخطوات العلاج، خرج من عيادة الطبيب تميد به الأرض.. لا يعلم لماذا عجلت والدته بالبحث وراء الأحزان؟! كان يحيا سعيدًا مع مَن اختارها قلبه..

اليوم، عليه أن يقرر ماذا يفعل لو أن الله لم يرزقه بطفل منها.. ماذا عليه أن يفعل؟

هل ينفصل عنها، أم يُحكم عليها أن تعيش بلا أطفال باقي عمرها؟.. وهل تقبل هي بذلك؟ وإن رفضت أن تنفصل عنه هل ستظل تراه كما تراه الآن، أم ستشعر بما يشعر به من انتقاص في رجولته؟ والأهم: هل سيرضخ لطلبها إذا رفضت الانفصال من أجل إسعاد قلبه على حساب سعادتها؟

هل يستطيع أن يحيا معها وهي تشفق عليه؟

لن يستطيع، ولن يقبل أن يستمر معها مهما تمسكت به، ولن يرضى لها أن تُحرم من نعمة الأمومة..

وصل إلى المنزل وذهب إلى والدته في حجرتها يبكي بين يديها بكاء طفل فَقَدَ عزيزًا عليه.. ربَّتت وفاء على ظهره قائلة:

- ماذا قال لك الطبيب؟

- أخبرَني أن نتائج التحاليل تُظهر أن هناك مانعًا للإنجاب، لكن هناك علاج يمنحنا فرصة 20 %.

صمتت وفاء قليلًا ثم قالت له:

- لا تخبر أحدًا بهذا الأمر.

أجابها بصوت مخنوق:

- نسبة نجاح العملية بعد العلاج لن تتعدى الـ20%.

تماسكت وفاء من داخلها كي تستطيع أن تفكر، ثم قالت:

- لا تخبر أحدًا بحالتك حتى يتم العلاج كما طلب منك الطبيب. ألم يخبرك كم من الوقت يستغرقه العلاج؟

- ستة أشهر، وبعدها نعرف النتيجة.

- ستة أشهر! يجب ألا تعلم فريدة عن الأمر شيئًا حتى أفكر كيف تخبرها.

- أمي، إذا لم يرزقني الله فسوف أترك فريدة.

شهقت وفاء قائلة:

- ما هذا الكلام؟ إن شاء الله سيرزقك الله طفلًا واثنين... ثم لماذا تقسو هكذا على نفسك؟ هل كنتَ ستُضحي بها إن كانت هي المريضة؟

- يا أمي هناك فرق كبير، ثم إنني غير عابئ بالأطفال، لكنها عاشقة لهم. كيف لي أن أحرمها؟

- قلت لك اترك هذا الأمر في الوقت الحالي، ولا تفكر في أي أمر إلا العلاج.

تركها جاسر وذهب إلى غرفته، لا يعلم كيف يمكنه أن ينظر في وجه فريدة وهو يشعر بأنه يُخفي عليها أمرًا يخصها مثله وأكثر؟! هو على يقين أنها بمجرد أن تنظر إليه ستعلم كل شيء.

كان ظنه في محله؛ فبمجرد أن دلف إلى حجرته وجدها في

انتظاره.. ولما نظرت إليه أحسَّ وكأنه قد وقع في بئر عميقة..

باغتته قائلة:

- ما الأمر يا جاسر؟ يبدو على وجهك وكأن هناك أمرًا جللًا قد حدث، ثم إنني قد اتصلتُ بك أكثر من مرة، وعلى غير عادتك لم تُجب.

أشاح بيده لأعلى متعجبًا وهو يُجيبها:

- ما بي؟! لا شيء.. مجرد إجهاد عمل.

ثم إنني كنت في مهمة ولم أستطع أن أجيب على مكالمتك.

اقتربت منه متمعنة النظر في وجهه، فأدار وجهه عنها منفعلًا:

- قلت لكِ لا يوجد شيء. لِمَ كل هذا الإصرار وكل تلك النظرات؟

ابتعدت عنه قائلة:

- حمدًا لله الذي رزقني البصيرة. علمتُ أن هناك أمرًا جللًا، وبانفعالكَ قد تأكدتُ وتيقنت من رغبتك في إخفائه عني.

التفت إليها. جذبها من يدها، ثم عانقها بقوة قائلًا:

- هناك أمور كثيرة يتمنى المرء أن يجهلها بدلًا من أن يعلمها ويكتوي بها.

- إذا علمنا باشتعال النار في لحظتها نستطيع أن نطفئها سريعًا، أما إذا تركنا النار فستتحول لنيران تحرق كل من يقترب منها ولن تخمد أبدًا.

أخذها من ذراعيها وأجلسها بجانبه قائلًا:

- أتعاهدينني أن يكون الأمر سرًّا بيننا؟

أومأت فريدة برأسها موافقة وقد انتابها القلق من حالته ومن جذبه لها بتلك الطريقة.

أخذ يقصُّ عليها ما حدث معه في عيادة الطبيب، ثم أنهى حديثه قائلًا:

- أعدكِ إذا لم يكتب لنا الله أن يرزقنا بطفل فسأحررك مني معززة مكرمة بكافة حقوقك.

نظرت إليه ودموعها تنهمر في صمت على وجنتيها قائلة:

- كنت أظنك متمسكًا بي، أو أن تخبرني أنكَ ستبذل قُصارى جهدكَ من أجل الحفاظ على وجودي بقربك. هل لو كان المانع يرجع لي كنت ستتركني؟

ظلَّ يبكي وهو يحدثها قائلًا:

- لم أكن لأتركك أبدًا، ولم أكن لأستبدلكِ بكل نساء الأرض، لكن المرأة لا تملك أي حق سوى الانفصال. كيف ترضين لي أن أحيا على تضحيتكِ؟ من حقكِ أن...

أسكتته بوضع يدها على فمه قائلة:

- لا يرضيني إلا أنت. لم أرَ الحياة إلا بعيونكَ ومن خلالكَ. لن أكون لغيركَ في الحياة مهما كتب الله علينا.

دَعْنا نحاول معًا يا جاسر أن نمر بهذا الأمر ونخوض معًا رحلة العلاج، وبعدها سنرضى بما كتبه الله لنا. تلك المحن والابتلاءات هي شريان الحياة في أي زيجة. الابتلاءات تقوّي العزائم وتوثق العلاقات.. لن أتركَكَ يومًا، ولن يفرقنا سوى الموت.

ضمَّها إلى صدره صامتًا، تاركًا دقات قلبه تعزف معزوفة حزينة على أوتار قلبها.

ثم تمتمت قائلة:

- لا أرى أن هناك داعيًا لمعرفة أي شخص بهذا الأمر، حتى وإن كانت والدتكَ أو والدتي.

ثم استرسلت في حديثها قائلة:

- وإذا سأل أي منهما عن هذا الأمر فسنخبرهم برغبتنا في التأجيل.

ثم سألته:

- ألا تشعر بالجوع؟ هل أجهز العشاء؟

أشار إليها بالرفض.

لكنها داعبته قائلة:

- لكنني أتضور جوعًا، ولن اتمكن من النوم دون أن أتناول العشاء.

جاهد نفسه وهو يرسم البسمة على وجهه قائلًا:

- إذن نتناول العشاء كما أمرتِ يا حبيبتي.

لم تكن جائعة كما ادَّعت، بل كانت في حاجة إلى أن تنفرد بنفسها ولو لدقائق؛ تستجمع مشاعرها، وتفكر فيما هو آتٍ. لم تخبره بذهابها مع والدتها للفحص الطبي؛ لأنها لم تكن قلقة. كانت ترى أنها مسألة وقت. لم يشغل بالها تأخر الحمل رغم حبها الشديد للأطفال، إلا أنها ليست متعجلة. لكن ماذا لو لم يرزقهم الله بطفل؟ هل ستتخلَّى عنه؟

لا يمكن أن تضحي بجاسر. جنونه وحنانه هو سبب تعلقها به وحبها له. اندفاعه تجاهها منذ اللحظة الأولى، وعدم تردده في البوح بمشاعره جعلها تشعر بأنها المرأة الوحيدة على وجه الأرض. كان مختلفًا عن أي شاب التقت به، حتى عن أخيه التوأم. كيف لها أن تتخلى عنه يومًا..

لكن كل ما تخشاه الآن هو معرفة والدتها؛ فهي على يقين أنها أول مَن ستسعى للطلاق حتى قبل أن يبدآ رحلة العلاج. لن تسمح لها أن تتدخل في حياتها بعد الآن. عليها أن تحرص على أن تخفي عنها هذا الأمر؛ حتى لا تقذف جاسر ببعض الكلمات اللاذعة التي تجيد استخدامها.

وفي غرفتهما جلسا متشابكي الأيدي صامتين، ثم طرأ على ذهنها شيئًا فبادرته متسائلة:

- ألم تقل لي إن هناك مأمورية لمدة طويلة تستدعي سفركَ إلى الإسكندرية؟

تعجَّب جاسر من ذِكر هذا الأمر في هذا الوقت. أجابها متسائلًا:

- نعم، لكن لماذا تسألين؟

- ما رأيكَ أن ننتقل الفترةَ القادمة للإقامة في شقة الإسكندرية؛ حتى نبتعد عن كلام أمهاتنا وننفرد بأنفسنا ونستكمل خطوات العلاج هناك دون أي ضغط؟ أعلم أن هناك مراكز عديدة متخصصة في هذا الأمر، يمكنك المتابعة هناك.

أخذ جاسر يفكر قليلًا وهو على يقين بمباركة والدته للأمر؛ كي يبتعد عن الجميع. خفض رأسه قليلًا ثم قال:

- فكرة معقولة، لكن هل ستقبل والدتكِ بذلك؟

- لا أعتقد أن لها أي أحقية في الرفض أو القبول. الأمر كله يرجع لكَ ولي فقط.

بعد أيام قليلة سافر جاسر وفريدة إلى الإسكندرية وأقاما في شقة والده هناك. كانت الشقة مُعدَّة بالكامل للإقامة الدائمة.

باشر جاسر عمله في اليوم التالي. كانت طبيعة عمله تحتم عليه أن يتغيب عنها لمدة يوم أو اثنين في بعض الأحيان. قررت فريدة أن تَشغل نفسها وتُبعد عنها كثرة التفكير والقلق، بأن تستأنف العمل هناك في مقر الشركة.

لم يغير سفرها أو بُعدها عن والدتها شيء. ظلت تحاصرها بالأسئلة كلما التقت بها أو هاتفتها عن ظهور أي أعراض للحمل أو أي بوادر وَحَم قد شعرت بها، حتى قررت فريدة أن تخبرها بأنها قررت هي وجاسر تأجيل الحمل لمدة سنة؛ بسبب كثرة انتقالاتهما في الفترة القادمة بحكم وظيفته، بعد أن خضع لكل التحاليل التي تُثبت خلوه

من أي مانع.

كان هذا الأمر ضروريًّا كي توقف والدتها عن السؤال لفترة ولو لعدة أشهر؛ كي تستعيد حالتها النفسية المستقرة.

استمر جاسر في العلاج أكثر من ثلاثة أشهر، لكن للأسف لم يحدث تقدم ملموس، ومع كل نتيجة يشعر كل منهما بالحُزن والألم المصحوب بفقدان الأمل.

***

في ذلك اليوم واجه والدته قائلًا:

- إذا مرَّ هذا العام دون إحراز تقدم أو نتائج، فسأنفصل عن فريدة دون إخبارها.

ضربت وفاء صدرها خائفة من كلامه، ووجَّهت له اللوم قائلة:

- ما هذا الكلام يا جاسر؟

- أنا فقط أحاول أن أعطيها فرصة في حياة أخرى يهبها الله فيها أبناء.

لم تجد وفاء مجالًا للمجادلة معه في تلك اللحظات المؤلمة التي يعيشها.. اكتفت بالصمت داعية الله أن يحقق أمانيها ويرزق جاسر بالولد.

***

مرَّ أكثر من ستة أشهر على قراءة فاتحة آدم ونجوى، كان فيها

خالد حريصًا على متابعة حالة نجوى يوميًّا مع رجاء في كل مكالمة. كان يعلم أن هناك مكالمات بين نجوى وآدم، ويعلم أن البُعد لن يغير المشاعر القوية الحقيقية، أما إذا كان مجرد وهم فلن يدوم معها الارتباط، وكان هذا سبب خلافه مع رجاء، فهى ترى أن البُعد يُسبب الجفاء وينهي الحُب، وهو يرى أن الحُب الحقيقي لا يُغيره أي بُعد. كان دائمًا يسألها:

- هل سفري وبُعدي عنكِ باعدَ بين مشاعرنا؟

لكنها كانت دائمًا تدافع عن مشاعرها وعن علاقتهما قائلة:

- هل تقارن علاقة جمعتنا في بيت واحد أعوامًا وأعوامًا بتلك العلاقة السطحية؟ هل تقارن سنوات الغربة التي قضيتُها معكَ، كنتَ أنتَ الزوج والحبيب والأهل والأصدقاء، بتلك العلاقة التي تسببت في ألمها أكثر من سعادتها؟

رغم اقتناع خالد بكلام زوجته فإنه كان لايملك أن يمحو تلك المشاعر من قلب ابنته، ولن يستطيع إجبارها على شيء تُبغضه. أنهى حديثه قائلًا:

- لم يعد أمامنا سوى مباركة تلك الزيجة والمضي في إنهاء ترتيباتها. عليكِ أن تتخذي خطوات لذلك مع والدة آدم في أقرب وقت.

رغم قناعتها بخطأ الاستمرار في مباركة تلك الزيجة فإنها كانت لا تملك أمر الرفض، كما لم تملك أن تغير مشاعر ابنتها تجاه آدم..

أذعنت لأمر زوجها، وبدأت في إعداد ترتيبات الزواج كما أمرها.

* * *

(7)

حاولت نادية أن تَشغل نفسها قليلًا بعد أن سئمت فريدة من مطاردتها المستمرة لها ورحلاتها للهروب منها.

لم يكن لديها خيار سوى العمل مع زوجها في الشركة.

أما نجوى فكانت منشغلة بدراسات الماجستير، وانحصرت علاقتها بفريدة في بعض المكالمات على فترات متباعدة، بعد أن شعرت بعدم وجود محادثات مشتركة بينهما.

شعرت وفاء بفراغ قاتل بعد سفر جاسر وذهاب آدم للجيش، وهو الذي كان يهوِّن عليها انشغال والده عنها طوال الوقت، حتى علاقتها بنادية قد تغيرت؛ ففي كل لقاء يجمعهما كانت نادية تنقل إليها قلقها من تأخر حمل فريدة، وشوقها لرؤية حفيد لها تعوِّض معه حرمانها من الدفء العائلي.

وفي كل لحظة كانت وفاء تحرص على أن تخفي شعورها بالألم والخوف الشديد من حرمان جاسر من الإنجاب، بل كانت تبثُّ فيها دائمًا روح التفاؤل والأمل، وتطمئنه بقرب وجود أحفاد لها يُضفون سعادة وبهجة على أسرتهم.

كانت وفاء تحرص كل فترة على أن تسافر إلى الإسكندرية لقضاء يومين أو أكثر مع فريدة وجاسر، منتهزة فرصة اقتراب إجازة آدم ليجتمعوا معًا.. لم يرافقها جمال الدين مطلقًا في أي إجازة، حتى في نهاية الأسبوع؛ دائمًا عنده أعمال أو يستعد لبدء عمل جديد، وعليه

دائمًا أن يُعد بعض الخطط والأوراق اللازمة.

وفي شتاء إحدى ليالي إجازة نصف العام وبدء موسم الأفلام السينمائية، اقترحت عليهم وفاء الذهاب إلى إحدى دور السينما؛ لمشاهدة أحدث الأفلام المعروضة. رحَّب جاسر بالفكرة قائلًا:

- فكرة رائعة، منذ أن انتقلنا إلى هنا لم يتسنَّ لنا أن نذهب إلى أي مكان للترفيه. ستكون فرصة رائعة، خاصة أن تلك الفترة لا يوجد بها نوة، وتكون الشمس دائمًا مشرقة.. ما رأيكِ يا فريدة؟

لم تُبدِ فريدة أي اعتراض، بل اكتفت بالموافقة دون أي تعليق.

نقل جاسر السؤال إلى آدم قائلًا:

- وماذا عنكَ يا آدم؟

تململ آدم قليلًا وهو يفكر في الأمر:

- أشعر برغبة في الاسترخاء أكثر أو الذهاب إلى الشاطئ وهو خالٍ للتمتع به. أعشق النظر إلى البحر في هذا الوقت من العام، ثم إنك تعلم جيدًا عدم محبتي للسينما طوال حياتي، حتى إنكَ كنتَ تذهب بدوني كل مرة.

ألقى جاسر الوسادة في وجهه قائلًا:

- لا يبقى الإنسان على حال، يمكنكَ أن تتغير قليلًا وتتنازل وترافقنا في تلك الأمسية، وأعدكَ بأننا سنأخذكَ للشاطئ غدًا.

أخذ آدم الوسادة وأعاد ترتيبها بجانبه معلقًا:

- لا أمل فيكَ أبدًا.. ستظلُّ تتحكم في كل رغباتي. ثم ما معنى "سوف نأخذك إلى الشاطئ"؟! طفل صغير تعده بالنزهة وإحضار بعض السكاكر والحلويات إذا أبلى بلاءً حسنًا!

لم ترغب فريدة بالتعليق بعد أن شعرت بقليل من التوتر قد أصاب آدم من مداعبة جاسر له.

وكعادة آدم، رضخ لرغبة والدته وجاسر معلقًا:

- سوف أذهب فقط من أجل إرضاء أمي..

حاولت فريدة أن تغير من حِدة الموقف متسائلة:

- إذن علينا أن نختار فيلمًا أجنبيًّا جديدًا.

انتفضت وفاء مستنكرة:

- أجنبي! لا، سنذهب لمشاهدة فيلم عربي طبعًا.

ابتسم آدم قائلًا:

- هل تتوقعين مشاهدة فيلم أجنبي يا أمي؟!.. هيهات أن تحلمي بذلك! إذا اجتمع جاسر ووفاء فاعلمي أنكِ لن تهنئي بمشاهدة شيء آخر غير أفلام عربية..

ثم بدأ يتندر عليهما قائلًا:

- في إحدى السنوات، كان هناك بعض السينمات المكشوفة، وكان العرض خمسة أفلام عربية متتالية.. تخيلي نفسكِ جالسةً تشاهدين خمسة أفلام متتالية.. وفي النهاية تتساءل أمي: لماذا لا يشاركنا أبي

السفر بعد أن أُجبر يومها على مشاهدة هذا العرض!

ضحك جاسر ملء شدقيه قائلًا:

- حقيقي، أنا من عشاق الأفلام العربية، لكن في هذا اليوم كانت الجرعة مضاعفة، خصوصًا أن أغلب الأفلام كانت رديئة.

شاركتهم فريدة الضحك قائلة:

- من المؤكد أنها أفلام رديئة، ثم إن كل الأفلام العربية نهايتها معروفة، ولا يوجد بها أي إضافة.

غضبت وفاء من تهكمهم عليها وانفعلت قائلة:

- لم أكن أعلم محتوى الأفلام، لكن هذا لا يعني أنني مذنبة، كل مرة أطالبكم بالذهاب للسينما تذكرون نفس الموقف.. ثم وقفت معلنة عن غضبها قائلة:

- لن أذهب إلى السينما معكم مرة أخرى.. ثم تركتهم متوجهة إلى غرفتها.

حاول جاسر تهدئتها واللحاق بها، بينما شعر آدم بالندم لأنه أول مرة يترك لنفسه العنان بالتهكم عليها. ذهب إليها معتذرًا، لكنها رفضت أي اعتذار أو حديث من أي منهم، مطالبة إياهم بتركها منفردة في غرفتها كي تُعد حقيبتها، فقد قررت العودة إلى القاهرة وإلغاء فكرة النزهة نهائيًا.

انسحبت فريدة إلى غرفتها بعد أن توتَّر الجو بين جاسر وآدم على هذا النحو مع والدتهما، وهي تعقد مقارنة بين والدتها ووفاء.

لم تختلف وفاء كثيرًا في تحكمها عن نادية، فكل منهما هو الوجه الآخر للثاني، الفرق الوحيد في آلية فرض القرارات: نادية تقرر تنفيذ قرارتها بالقوة وبالمواجهة، بينما وفاء تتبع مبدأ الضغط بالغضب والبكاء أحيانًا والانسحاب من أجل الشعور بتأنيب الضمير.

وأخيرًا مرَّت هذه السنة.. رغم كونها سنة كبيسة على الجميع فإنها انتهت على خير.

عام طويل مرَّ على آدم؛ فلم تكن فترة الخدمة العسكرية فترة ترفيهية، لكنه كان في حاجة إلى هذا العام، هذا العام حطَّم الوهم الذي عاشه آدم لسنوات، وتمكَّن من زرع البذرة الأولى من الحب الحقيقي الذي جمعه مع نجوى.

بدأ يتذكر أحاديثها وصوتها الدافئ الحنون. لقد اندهش من عدم حساسيته تجاهها كلما تذكر بريق عينيها وهي تنظر إليه، أو ارتعاش شفتيها وهي تتحدث إليه عن حلمها في أن تصبح معيدة في الجامعة، أو خجلها واحمرار خديها عندما سألتها فريدة عما إذا كان هناك مخطط للقلب، باعتبار أنه مستقبل أيضًا، مثل العمل والدراسة.

لقد مرَّ العام طويلًا أيضًا على نجوى لعدم لقائها بآدم كما أمر والدها.

وكان عامًا صعبًا أيضًا على فريدة وجاسر، بسبب الصعوبات التي واجهاها معًا..

إلا أنه بانتهاء العام كانت البشارة بإمكانية إجراء عملية الحَقن.

وأخيرًا.. تمَّ تحديد موعد زفاف آدم ونجوى بعد شهر.. شهر واحد وسيجتمع بها في مكان واحد.. كان يسابق الزمن لينتهي من تجهيز جناحهما الخاص قبل الزفاف.

بعد عقد القران، سمح خالد لنجوى أن تذهب معه كل يوم إلى المنزل لتشرف على ترتيبات الفرح والزواج، فكان للقائهما اليومي أثر آخر.. أثر يحمل مشاعر متأججة تدفعه إلى أن يلامس يدها عدة مرات، ويدفعه إلى أن يقترب منها أكثر؛ فيستنشق رحيقها، فيزيده وَلهًا لم يعلم عنه شيئًا من قبل.

لكن ذات يوم، قبل مراسم الزفاف بأيام قليلة، عاد المهندس جمال من عمله باحثًا عن آدم، ليجده مع خطيبته ووالدته في الجناح المخصص لهما، فعنَّفه قائلًا:

- آدم، أين هاتفك؟ اتصلت بكَ أكثر من مرة.

شعرت نجوى بالحرج من شدة انفعاله في الحديث مع آدم، ثم صُدمت عندما واصل حديثه بنبرة آمرة، قائلًا:

جهِّز نفسك فورًا للسفر إلى الإسكندرية لمقابلة عميل مهم. ستجد فريدة في استقباله أيضًا.

شعرت نجوى بألم حادٍّ اعتصر قلبها بعد أن استمعت إلى كلماته، لا تدري سبب هذا الشعور؛ هل بسبب سفره في هذا الوقت الضيق، أو لأنه سيكون مع فريدة في أهم وقت تحتاج إليه فيه.

تردد آدم قليلًا ثم سأله:

- ألا تستطيع فريدة أن تأخذ مكاني؟

غضب والده وقال له:

- هل يحقُّ لفريدة التوقيع؟

- هل سيستغرق الأمر يومًا واحدًا وأعود مساء اليوم، أم هناك شيئًا آخر؟

تردَّد والده قليلًا ثم أجاب:

- يعود الأمر إلى نجاح الاتفاق. من المحتمل أنه في غضون يومين على الأكثر، ستنتهي من جميع الأوراق.

ولما سمعت نجوى الكلمة الأخيرة شعرت بدوار شديد وكادت تفقد الوعي، فأحاطها آدم بذراعيه قائلًا:

- ما خطبكِ يا حبيبتي، هل تشعرين بشيء؟

أمالت رأسها قليلًا وقالت له:

- أنا بخير. عليك الذهاب الآن حتى تتمكن من اللحاق بعملك.

اقتربت منها وفاء وقالت:

- نجوى، لا تقلقي. كل ما تريدين تنفيذه سأساعدكِ فيه حتى يعود آدم.. لا تقلقي أبدًا.

ابتسمت نجوى ابتسامة باردة خالية من أي مشاعر؛ حيث إن الترتيبات بغير وجود آدم لا تعني لها أي شيء. كل ما يؤلمها هو بُعده عنها ووجوده مع فريدة.. ما زال القدر يعلن كلمته. حتى بعد أن

جمعهما القدر معًا، فقد جمع معهما الألم والشعور بعدم الأمان.

التفت آدم إلى والده قائلًا:

أبي، هناك بعض الاستعدادات الخاصة بنجوى، عليَّ الانتهاء منها قبل الحفل.

قاطع والده حديثه قائلًا:

- سيكون لديك أيام قبل الحفل. انتبه أنه لم يتبق لديك سوى أربع ساعات.

تركه والده مشتتًا، لا يعرف ماذا يفعل الآن، ولا يعرف كيف يخفف عن نجوى وطأة هذا الظرف، لكنه دائمًا كان يرضخ لأوامر والده في نهاية الأمر.

مرَّت الأيام عليها برتابة وحزن. رفضت الاتصال به، على أمل أن تشعر بتَوْقه وبحثه عنها طوال الوقت، لكن من المستحيل عليها أن تحلم بهذا في حضور فريدة.

استغرق العمل ثلاثة أيام فقط، لكنها مرت عليها كالشهور.. اتصل بها في الطريق أكثر من مرة لكنها لم تجبه. كان يعرف مدى حزنها. ذهب إلى بيتها حتى يزيل الحزن والضيق عن قلبها. بدت شاحبة.. اقترب منها معتذرًا، موضحًا أنه لم يتصل بها لأنه كان يكافح من أجل إنهاء ما طلب منه والده فِعْله، لكنها فاجأته بسؤال:

- هل كان جاسر في المنزل كل يوم، أم أن عمله يتطلب منه المبيت بالخارج أحيانًا؟

تفاجأ آدم من سؤالها فأجاب:

- لا أعلم، لأنني لم أرَ جاسر منذ ثلاثة أيام. لا أعرف ما إذا كان حاضرًا أو مسافرًا في مهمة عمل.

- ألم تره في المنزل؟

- لم أذهب إلى المنزل. كنت أقيم في فندق.

- ألم تُقم معهم في المنزل؟

- هل نسيتِ وجود فريدة؟ كيف أمكث معها بمفردي؟

ببطء، استعادت نجوى روحها، فمازحها قائلًا:

- هل يمكننا استكمال بقية مراسم الزفاف، أم أنكِ غيرتِ رأيكِ بشأن العريس؟

ابتسمتْ له ثم بدأت تستعرض معه بقية مراسم الزفاف.

* * *

حفل الزفاف

أقام آدم حفل الزفاف في حديقة الفيلا بعد أن زينها بالكامل بالورود والزهور، وأحضر فرقة موسيقية تعزف قطعًا موسيقية راقية.. كان عُرسًا يشبه عُرس الأمراء والأميرات، خاليًا من أي ضوضاء.. نغمات هادئة مع نسمات الصيف العليلة.

تقدم آدم إلى عروسه طالبًا منها السماح له بمشاركة تلك الرقصة، وبعد الرقصة الأولى انضم جاسر وفريدة وباقي الأصدقاء والأقارب

لمشاركة العروسين الرقصة الثانية.

انتهى الحفل مع الساعات الأولى للنهار، وانطلق العروسان لقضاء رحلة شهر العسل في تركيا ولبنان.. شهر كامل كما خطط آدم.

لم يمر سوى أشهر قليلة وكانت فريدة ونجوى يحمل كلٌّ منهما طفلًا في أحشائها؛ الفرق بينهما أقل من ثلاثة أشهر.

عادت فريدة مرة أخرى للإقامة في الفيلا، بعد أن أنهى جاسر مهمته وانتقل إلى مهمة أخرى في إحدى محافظات الصعيد، وكان من الصعب عليها أن ترافقه بعد الحمل.

استعادت نجوى وفريدة صداقتهما مرة أخرى، بعد تواجدهما معًا في الفيلا..

علمت فريدة أنها حامل في صبي. بدأت هي وجاسر تفكر في اختيار اسم له، أثناء ذكر الأسماء والاختيار بينها طرح آدم اسم "زياد"، وهو نفس الاسم الذي عرضته فريدة على جاسر من قبل.. ضحك جاسر متسائلًا:

- هل اتفقتَ معها يا آدم ضد أخيك؟

تبدلت ملامح نجوى بعد كلمات جاسر العفوية، وتبادلت النظرات مع آدم وهو يشعر ببعض الارتباك من نظرات نجوى قائلًا:

- لا والله، لم أعلم أنه نفس الاقتراح، لكن فقط شعرت أنه متوافق مع اسم الأب.

ضحك جاسر ووجَّه حديثه إلى نجوى:

- أرسلي لي رسالة بالاسم الذي تريدين تسمية ابنكِ به يا نجوى، وسأكون داعمًا لكِ.

ثم أكمل قائلًا:

- إذن، زياد جاسر جمال الدين.. اسم موسيقي متناغم.

وبعد شهرين ونصف، كان موعد وصول "نغم آدم جمال الدين".

***

تحقق حلم وفاء، وامتلأ المنزل بأبنائها وأحفادها، بعد أن رُزق آدم ونجوى بـ "سمر"، بعد عامين من ولادة "نغم".

مرت الأيام والأعوام عليهم، عام يليه عام، في جو عائلي رائع. ينشغل جاسر في عمله الذي يتطلب منه السفر المستمر، أما آدم فقد ظلَّ بين فرعي الإسكندرية والقاهرة، واستقرت فريدة بمتابعة عملها في الشركة مع والدها ووالدتها، وتدرجت نجوى في عملها بالجامعة.

***

مر ثمانية عشر عامًا على زواج نجوى وآدم، وجاء موعد إعلان نتيجة الثانوية.. اليوم سيتقرر مصير زياد ونغم.

كانت وفاء على ثقة من نجاح أحفادها؛ ففي الصباح كنت تُعد لإقامة حفلة ضخمة يجتمع فيها كل الأهل والأحباب؛ للاحتفال بنتيجة زياد ونغم.

لكن فريدة -على غير عادتها- كانت قلقة ورافضة لإقامة أي حفل.

كانت ترى أن حماتها قد استبقت الأحداث..

حاولت نجوى تهدئتها قائلة:

- إن شاء الله سينجحان وبتفوُّق.

لكن فريدة كانت تشعر بضيق لا تعرف له سببًا.

وقُرب أذان الظهر أُعلنت النتيجة التي جاءت محققة آمال وفاء وأحفادها؛ فقد نجح زياد بمجموع يؤهله للالتحاق بكلية الهندسة كما كان يأمل، وستتمكن نغم من الالتحاق بكلية الفنون الجميلة كما كانت تتمنى.

لكن الشعور بالضيق ظلَّ يلازم فريدة طوال اليوم، حتى أثناء الحفل. من آنٍ لآخر تميل نجوى عليها تحثها على الابتسام؛ فقد كانت ملامح الضيق بادية عليها.

ملامح زياد ونغم المتشابهة كانت تُعطي انطباعًا بأنهما توأم. كثيرًا ما تعجَّب أصدقاؤهما من كونهما ابني عمٍّ، ملامحهما المتشابهة، إقامتهما في نفس المنزل، أفكارهما المتوافقة، دراستهما المتطابقة.. حتى تصرفاتهما في أي موقف.. كل هذا كان يدعو للتعجب والإعجاب في آنٍ واحد. كثيرًا ما تساءل الأصدقاء عن علاقة والدتيهما معًا.. كيف لهما أن يتوافقا بالشكل الذي يجعل علاقة الأبناء مثل علاقتهما! ورغم أن سمر كانت تصغرهما بعامين، فإنها كانت بمثابة الأخت الصغرى لهما وليس لنغم فقط.

انتهى الحفل مساءً بعد أن اتفق زياد ونغم على ترتيبات حفل الغد

مع أصدقائهما وزملاء الدراسة.

وفي اليوم التالي، وفي الوقت المحدد للحفل، قرر زياد أن يستقلَّ سيارة والدته هو ونغم دون أن تعلم والدته؛ فهي ترفض قيادته للسيارة قبل أن يستخرج رخصة القيادة، ومن المؤكد أن خالته نجوى لن تقبل أن ترافقه نغم إلا بوجود السائق، فقرر أن يتسلل دون إعلامهما بقيادة السيارة مع نغم.

لقد كانت حفلة حقيقية، على عكس الحفلة التي أقامتها جدته بالأمس، لأنها كانت تقتصر على الأصحاب والأصدقاء.

نظرت نغم إلى ساعتها واقتربت من زياد قائلة:

- زياد الشمس على وشك الغروب، وأنت تعلم أننا لو تأخرنا فسينكشف أمر السيارة أمام أبي وعمي. علينا الذهاب الآن.

قاوم زياد طلبها قليلًا، ثم طلب منها نصف ساعة أخرى، وبالفعل بعد نصف ساعة وقُرب غروب الشمس، استقل زياد ونغم السيارة. أدار زياد الأغاني ورفع صوت السماعات قليلًا بينما كان يردد كلمات الأغنية.

في تلك اللحظات شعرت نغم بدوار شديد، وبدأت تشعر بأنها تفقد قدرتها على التنفس.. ارتبك زياد وقرَّر الذهاب إلى أقرب صيدلية لقياس الضغط، لمعرفة ما إذا كان ضغط الدم هو السبب أم شيء آخر.

نزل من السيارة وتوجَّه إلى الصيدلية ليخبرهم عن حالة ابنة عمه،

ويسألهم عن مدى توفر جهاز قياس الضغط، لكن أثناء عبوره الطريق صدمته سيارة مسرعة فرفعته إلى الأعلى، ثم ألقته طريحًا في الطريق الآخر.

***

في المشفى

تقف نغم تبكي وهي منهارة خلف باب زجاجي يفصلها عن زياد ومجموعة من الأطباء، انضم إليها جاسر وآدم وفريدة ونجوى.. أمسكت فريدة بذراع نغم متسائلة:

- ماذا حدث؟ وكيف؟

- أثناء عبوره الطريق ظهرت سيارة منطلقة بسرعة عالية ورفعته إلى الأعلى ثم دفعته إلى الجانب الآخر من الطريق.

انهارت فريدة وظلت تبكي وتدعو الله أن ينجي وحيدها من الموت.

كانت نجوى هي الأخرى تبكي من أجل نجاة نغم، وتبكي من أجل ألم فريدة، رغم غَيْرتها أحيانًا من عدم إنجابها لولد؛ فكم كانت تشتاق إلى أن يرزقها الله بأخٍ يحمي بنتيها نغم وسمر!

ومع ذلك، فإن زياد هو أيضًا كابنها الوحيد، الذي نشأ معها وبين يديها.

مرَّ الوقت بطيئًا على الجميع كأنه دهر، حتى هُرع الأطباء والممرضات لسحب السرير الذي ينام عليه زياد، واندفع إليهم أحد

الأطباء قائلًا:

- أين والده؟

ردَّ جاسر محاولًا أن يتمالك نفسه من الانهيار:

- أنا.

- نحتاج إلى موافقة لدخول غرفة العمليات. يوجد نزيف حادٌّ ويحتاج إلى نقل دم لتعويضه ومحاولة وقف النزيف.

يذهب الجميع إلى المختبر لأخذ عينات الدم، والتأكد من مطابقتها لفصيلة دم زياد.

سقطت فريدة على الأرض، وقامت نجوى بمساعدتها وهي تلوح لهم بالذهاب وإجراء الاختبارات اللازمة، وأخبرتهم بأنها ستعتني بفريدة.

دخل زياد غرفة العمليات، وبعد فترة وجيزة خرجت إحدى الممرضات لتسأل أين والده "آدم جمال الدين"!

استدار الجميع ورد آدم:

- أنا... عمه.

- أنت الوحيد الذي توافق دمه مع المريض. أرجو أن تأتي معنا سريعًا، كما أننا نريد شخصًا آخر من عائلته أو والده أو والدته يقوم بالفحوصات؛ لأننا سنحتاج إلى أكثر من متبرع.

أسرع جاسر وفريدة إلى المختبر لإجراء الاختبارات مرة أخرى،

كما قامت نغم ونجوى بإجراء الفحوصات أيضًا، لتظهر النتيجة بتوافق فصيلة نغم فقط مع فصيلة دم آدم.

تنحَّت نجوى بالفني المسئول عن نتائج التحاليل، وسألته عن سبب عدم توافق فصيلة دم المريض مع فصائل دم الأم والأب، فأجاب فني المختبر:

- لا أستطيع إعطاء إجابة طبية صحيحة، لكن فصيلة دم المريض (B)، وهي نفس فصيلة دم أخته، أما باقي نتائج فصائل الدم فكانت كالتالي:

فصيلة دم السيدة فريدة (O)..

السيد جاسر (A)..

السيدة نجوى (AB)..

وأضاف الفنيُّ:

- على الرغم مما كان معروفًا في الماضي من أن فصيلة الدم (O) يمكن أن تعطي كل الفصائل، فإن هذا الأمر لم يعد مطبقًا الآن.

كادت الأرض تميد بها عند سماعها كلمة "أخته". وَقْعُ صدى الكلمة عليها كان كسقوط كتلة صخرية عليها من ارتفاع شاهق!!

ظلت تسترجع جميع معلوماتها العلمية السابقة عن فصائل الدم، وكان بالتأكيد مستحيلًا أن تنتج فصيلة (B) من (O) و(A)!

مرت أكثر من ثلاث ساعات داخل غرفة العمليات، حتى ظَهر

الطبيب يخاطبهم قائلًا:

الحمد لله، توقف النزيف بعد استئصال الطحال؛ فقد تهتَّك بسبب الحادث، وكان السبب الرئيسي للنزيف، لكن الحالة لا تزال حرجة، حيث يوجد كسر في القفص الصدري، وجرح في الرئة اليمنى. نأمل أن تمر الفترة القادمة بشكل جيد.

لَحِقَ جاسر بالطبيب مطالبًا إياه بالانفراد به قليلًا. أشار إليه الطبيب بالترحيب به داخل غرفة مكتبه.

بدا القلق على وجه جاسر وهو يخاطب الطبيب متسائلًا:

- هل يمكن أن يحدث شيء له؟ هل سنفقده؟

حاول الطبيب بثَّ الطمأنينة في قلبه قائلًا:

- اطمئن يا سيد جاسر، إن شاء الله يمر الوقت القادم بسلام، ويستعيد زياد صحته بأمر الله.

تردد جاسر قليلًا قبل أن يسأل الطبيب:

- عندي سؤال. كيف لم تتطابق فصيلة دمي أو دم والدته معه؟

تلعثم الطبيب قليلًا ثم بدأ في البحث عن إجابة لا تثير فيه الريبة؛ بأنه من المحتمل أن نتيجة التحاليل لم تكن دقيقة كما يجب، وعند إعادة التحليل مرة أخرى فستصبح متطابقة.

جلس جاسر على أحد المقاعد أمام غرفة العناية المركزة، على أمل ان يطمئن عليه وتستقر حالته. ألقى برأسه للخلف يسترجع ذكرياته

معه..

بعد إتمام عامه الأول، كانت فريدة تمسك يديه محاولة تدريبه على خطوات المشي، لكنه لم يكن يكمل خطوة أو اثنتين على الأكثر حتى يقع على الأرض.. يبكي ببراءة.. تحمله فريدة بين ذراعيها بسرعة وتضمه إليها محاولة تهدئته من خوف الوقوع. تبث في قلبه الطمأنينة. كان جاسر يشعر بمبالغتها في الأمر، حتى إنه ضحك عليها قائلًا:

- أشعر وكأنكِ قد انتشلته من أمام عربة مسرعة كادت تصدمه! هوِّني على نفسكِ قليلًا. لا بد أن يقع كي يتعلم أن يتماسك ويعتمد على نفسه.

وقف أمامها حاملًا زياد من يده، ثم حاول تكرار الأمر معه. اقتربت فريدة من زياد تحاول مساندته خوفًا من الوقوع مرة أخرى، لكن جاسر أصر أن تبتعد عنهما، ثم ثبت ساقه على الأرض قائلًا بحزم:

- تستطيع أن تقف بمفردك وستقف..

وبخفة وسرعة بعد أن اطمأنَّ على ارتكاز قدمه على الأرض، ترك يده فجأة حتى يحاول زياد أن يحميَ نفسه من الوقوع ويتمالك جسده ولا يقع، لكنه وقع للمرة الثانية، لكن في تلك المرة وقع على أنفه فنزف دمًا غزيرًا أصاب فريدة بالخوف والهلع.. هُرع آدم على صوت بكاء زياد، ورأى قطرات الدم على أنفه، لينطق زياد بين صرخاته وبكائه "آد"، ثم يرفع يده مشيرًا إليه ليرتمي في حضنه محاولًا أن يُخفي رأسه عن جاسر.. لا يريد رؤيته؛ فهو المتسبب في

وقوعه وإصابته في أنفه..

يحتضنه آدم بحنوٍّ ظاهر قائلًا:

- ما به بطلنا؟ ما الذي أبكاه؟ ثم رأى الدم تجلط على أنفه فسأل بقلق:

- مَن فعل به ذلك؟

أجابته فريدة مندفعة:

- جاسر. حاول أن يتركه يعتمد على نفسه دون مساعدة كي يتمالك نفسه.

لم يستطع جاسر أن يجعل صغيره يصفح عنه. حاول الاقتراب منه أكثر من مرة، لكنه كان يُخفي رأسه في صدر آدم في كل مرة.

وبعد أن كبر قليلًا وتمكَّن من السير بمفرده، كان أكثر تعلقًا بعمه.

رغم انشغال واهتمام والدهم بالعمل، فإنه كان أشدَّ حرصًا على تواجدهم جميعًا على طاولة الطعام كل يوم مرتين: في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، قبل ذهاب أي منهم إلى عمله، ومرة أخرى على طاولة العشاء مساءً، بعد أن ينتهي الجميع من أعمالهم ومواعيدهم.

حياة عسكرية بمشاعر دافئة.

في كل مرة يجلس زياد على المقعد المجاور لآدم ولجدته وفاء. يرفض الجلوس بجانب فريدة. يتمتع بدلال جدته له وإعدادها

البيض المخفوق له ولعمه فقط، حتى شعر جاسر بغيرة نغم قليلًا من تعلق زياد وآدم بعضهم ببعض، ونقلَ مخاوفه إلى فريدة قائلًا:

- ألا ترين أن تعلُّق زياد بآدم أثار غيرة نغم قليلًا؟

وافقته فريدة قائلة:

- بالفعل لاحظت ذلك، لكن كما ترى حاولت أكثر من مرة أن أبعده ولو قليلًا، لكني كنت أخشى أن تتخيل نجوى أنني أفعل ذلك لأنهما لم يرزقا بولد حتى الآن، خصوصًا بعد أن رزقهما الله بـ "سمر"، وأصاب ذلك نجوى بالحزن. كانت تتمنى أن يرزقها الله بولد، لكنها إرادة الله.

يداعب جاسر فريدة هامسًا:

- تعلمين، بعد مجيء سمر وأنا مشتاق أن يرزقني الله بابنة مثلها.

توترت فريدة قليلًا وهي تحذره قائلة:

- ألم نتفق أننا لن نخوض هذا الأمر مرة أخرى؟ لماذا تتراجع عن اتفاقنا الآن؟

- لا أتراجع، أنا فقط أدعوكِ للتفكير مرة أخرى، مرَّ وقت طويل منذ ولادة زياد، وأرى أنكِ قد استعدتِ صحتكِ كما كنتِ، فلم لا تعطي فرصة مرة أخرى للتفكير؟

تحتدُّ نبرتها قائلة:

- هل تعني استعادتي نفسي أن أستعيد ما مررتُ به مرة أخرى؟

لا يمكنكَ أن تشعر بما شعرتُ به من ألم؟ هل تتذكر ما أصابني بعد جرعة الهرمونات التي طالبني الطبيب بتعاطيها؟ تتذكر ما تركته من أثر في المخ؟ وكم عملية بذلٍ تمت في العمود الفقري؟... لن أكررها مرة أخرى مهما حدث.

أذعن جاسر لقرارها رغم اشتياقه لوجود طفل آخر؛ فهو يعلم جيدًا ما مرت به أثناء تلك الفترة، لكن ظلت سمر بملامحها الهادئة وبسمتها الصافية تداعبه في كل لحظة، حتى نسي معها أمر زياد وآدم. رغم غيرته من تعلق زياد بعمه، فإن سمر استطاعت أن تسيطر عليه، وتبدلت المواقف، وأصبحت سمر مع جاسر دائمًا، وزياد مع آدم في كل آنٍ..

***

خرجت إحدى الممرضات من غرفة العناية على عجلة من أمرها، فسألها جاسر وفريدة:

- ماذا حدث؟

لكنها تركتهما وهُرعت إلى بنك الدم. هُرعوا خلفها ليستمعوا إليها وهي تطالب العاملين بضرورة توفير كيس دم للمريض زياد جاسر؛ لأنه سيخضع لعملية أخرى حالًا.

طلب جاسر وفريدة التبرع بالدم لابنهما مرة أخرى، بعد أن طالبهم جاسر بإعادة التحليل مرة أخرى بدقة؛ لعدم دقتهم في المرة السابقة، لكن للأسف الشديد، لم يتغير شيءٌ في الأمر، وظلت فصائل الدم غير متطابقة.

مضى الوقت عليهم كالدهر.. زياد في غرفة العمليات مرة أخرى، وشكوك وظنون تتلاعب بالأذهان.

وبعد أن انتهت العملية خرج الطبيب يطمئنهم أنه الآن تحت الملاحظة، وبإذن الله تتحسن حالته في خلال ساعات قليلة.

اقترب منه جاسر قائلًا:

- هل يُمكنني إجراء تحليل فحص الحمض النووي لزياد في الوقت الحاضر؟

اعتذر الطبيب لجاسر وأجابه:

- علينا أن ننتظر قليلًا. أعرف ما تشعر به الآن، لكن أهم شيء الآن هو الاطمئنان على زياد.

غادر جاسر المستشفى وحده، مستقلًا سيارته، يبكي ويبكي، وكأنه لم يبكِ من قبل.

* * *

(8)

لم تبرح فريدة المشفى نهائيًا. لا تعنيها نتيجة تحاليل الأمس. لا يعنيها في تلك اللحظة سوى زياد. الحقيقة الوحيدة بالنسبة لها أنه ابنها ووحيدها الذي عاشت لأجله كل تلك الأعوام.

تقف وراء الحاجز الزجاجي تنتظر أن يفتح عيونه وينادي عليها كما تعوَّدت كل يوم، لكن هيهات ما تتمناه اليوم!

في الصباح الباكر، جلست نادية ووفاء معًا أمام غرفة الرعاية، في انتظار إعلان الطبيب أن الحالة قد استقرت.

وفاء تبحث عن جاسر، لكنه لم يأتِ بعدُ إلى المستشفى، فاتصلت به قائلة:

- أين أنت يا جاسر؟ لماذا لم تأتِ لترى ابنك بعد؟

أجاب بصوت متهدج:

- هل أفاق؟

أجابته وفاء وهي تستشعر ألمه وخوفه:

- ما زال كما هو. لم يخبرنا أحد بشيء إلى الآن، وفريدة تقف منهارة و...

لكنها لم تكمل حديثها. لقد سمعت الهاتف يغلق في تلك اللحظة.

حاولت الاتصال به أكثر من مرة، لكنه أغلق الخط مرة تلو الأخرى، حتى علمت أنه ليس على ما يرام، وأنه يتعين عليها انتظاره.

ذهبت إلى آدم لتسأله عن أخيه، لكنه لازَمَ الصمت أيضًا، وأدار رأسه عنها، وتركها دون أن ينبس ببنت شفة.

مرَّت الأيام ولا يزال الوضع حرجًا، ولا يوجد تحسن.

اقتصر حضور جاسر على بضع دقائق فقط، ينظر فيها على زياد، ثم يغادر باكيًا. لم يقل كلمة واحدة لفريدة على الإطلاق خلال تلك اللحظات القصيرة، ولم تحاول هي حتى التحدث إليه.

وفي اليوم الثامن..

جاءت نتيجة تحليل الحمض النووي لزياد وجاسر وآدم وفريدة، بعد أن تَقابل جاسر مرة أخرى مع الطبيب في اليوم التالي للحادث، طالبًا منه مساعدته في معرفة الحقيقة، وطلب منه إجراء التحليل دون أن يشرح لأي منهم أسباب أخذ العينة، بعد أن علم أنه من خلال عينة الدم يمكنهم إجراء التحليل.

لكن أكثر ما آثار دهشة الطبيب، هو طلب آدم مقابلته أيضًا في نفس اليوم؛ حيث طلب منه إجراء تحليل الحمض النووي له هو وزياد دون إخبار أحد بالأمر!

تابع الطبيب نتيجة التحليل عن كثب، وفي اليوم الثامن جاءت النتيجة متوافقة مع التوقع الذي ينفي بنوة زياد لجاسر ويثبتها لآدم!

كان آدم أول مَن عرف نتيجة الاختبار، فأخذه وركض إلى فريدة، طالبًا الانفراد بها قليلًا ليحدثها في أمر مهم، وفي غرفة انتظارها ألقى آدم بنتيجة الفحص في وجهها قائلًا:

- هل يمكنكِ إخباري كيف ومتى حدث هذا؟

غضبت فريدة من طريقته وتركت الورقة تسقط على الأرض دون أن تهتم بها، وسألته بغضب:

- ما الذي تتحدث عنه؟ ولماذا تتحدث معي بهذه الطريقة؟

أمسك الورقة مرة أخرى ورفعها أمام عينيها قائلًا:

- ما هي الطريقة المناسبة للحديث معكِ بعد أن أظهرت نتائج تحليل الحمض النووي لي وزياد إثبات نسبه لي؟!

أصيبت فريدة بالصدمة من تلك النتيجة، ومن الكارثة التي حلت بها دون علم منها، وأجابته:

- كيف تجرؤ أن تسألني عن هذا وأنتَ تعرف كل شيء؟

كانت إجابة فريدة لآدم آخر الكلمات التي استمع إليها جاسر بعد أن أخبره الطبيب بالحقيقة وتركه وذهب إليها في غرفتها بالمستشفى. يتساءل: كيف فعلتْ به ذلك ومتى؟

لم يأتمن أحدًا غيره عليها. طالبه بمرافقتها يومَها. لم يعلم أنه غدر به بدلًا من أن يحافظ عليه!

كانت نجوى واقفة تتنصت على حديث آدم وفريدة، وتقع كلماتها عليها كالصاعقة. ظنت أنها ستنكر، لكنها أجابته: «وأنت تعرف كل شيء».

فعلتها معه دون أي ندم..

فتح جاسر الباب.. تبادل النظرات معهما، ثم تحسس مسدسه ليرفعه دون أي تردد، ويطلق رصاصتين متتاليتين في رأس كل منهما، ليسقطا قتلى على الفور.

جلس جاسر على المقعد دون أن ينبس ببنت شفة. تقترب نجوى من زوجها وهي تتحسس نبضه على أمل أن تجده ما زال على قيد الحياة، لكنه وقع صريعًا بجانب فريدة..

فرقتهما الحياة وجمعهما الموت معًا.

يندفع الجميع في المستشفى إلى صوت إطلاق النار، ليتجمعوا أمام الغرفة في انتظار الشرطة.

تصرخ وفاء وهي تمسك بسترة جاسر متسائلة:

- لماذا أخوك؟... لماذا؟! أخبرني!

ماذا فعل لك شقيق الروح؟ ماذا فعل لك مَن كان يتقاسم معك حُزنك قبل فرحك؟

ماذا فعل لك مَن كان يحيا لأجلك قبل نفسه؟

أخبرني! ماذا فعل لك؟

وماذا فعلتُ أنا لك كي تذبحني مرتين؛ تذبحني بقتله وتذبحني بالقصاص منك؟

كيف سمحتَ لنفسك أن تجعلني أقتص لقلبي بروحي؟ أخبرني! ماذا فعلنا لك؟

كان جاسر يقف أمامها كجماد، لكن دموعه تنهمر على صدره، كان يصرخ بصمت ويجيب عليها دون صوت.

- لم أفعل له شيئًا بل هو مَن فعل بي كل شيء. كيف يسمح لنفسه أن يطعنني في ظهري غدرًا؟!

كيف سمح لنفسه بالتآمر معها ضد توأمه؟!

أجيبيني يا أمي... كيف؟!!

تفقد نادية وزوجها توازنهما تمامًا.. لا تفهم ما حدث منذ حادث زياد. لم تجد جاسر يقف بجانب فريدة يدعمها أو يشاركها، لكنه كان يكتفي بإلقاء نظرة سريعة ثم المغادرة، حتى إنها سألتها ذات مرة عن عدم حديثهما معًا، لكنها لم تجبها، اكتفت بالصمت والبكاء.

لم تكن تريد أن تضغط عليها بالأسئلة، نظرًا لحالتها منذ حادث وحيدها. اختارت ألا تتحدث معها في الأمر مرة أخرى حتى لا تثقل عليها. كانت تصلي وتعتني لأمر زياد فقط.

تعلقت بعنق زوجها قائلة:

- هي كل ما أملك. لماذا قتلها؟

قل لي، ما الذي فعلته له يجعله يحرق قلبي عليها هكذا؟ لو كانت ضايقته أو أغضبته لماذا لم يتركها، لكن لماذا يقتلها؟ أجبني يا حسن.. دعني أراه وأسأله لماذا فعل هذا؟ «فريدة» اللطيفة والمحترمة تُقتل!! قَتلها وقلبُها يغلي قلقًا على ابنها! لم يُمهلها حتى أن تفحصه وتودعه!

ماذا نقول لزياد؟

والدك قتل والدتك!

أجبني أرجوك.

تحوَّل مسرح الجريمة إلى طوق أمني لرفع البصمات ومطابقتها على سلاح الجريمة وتوضيح الظروف التي أدت إلى ارتكابها.

تصدرت جميع الصحف والقنوات التلفزيونية والمحطات الإخبارية الإلكترونية حادثة نجلي رجل الأعمال الشهير جمال الدين إبراهيم..

قام الضابط المعروف بأخلاقه الحميدة بقتل زوجته وشقيقه التوأم.. ماذا حدث؟ وما هي الأسباب التي أدت لذلك؟

بدأت النميمة والشائعات تعلن أنهم ضُبطا متلبسين في وضع غير أخلاقي، وكردّ شرف قام الجاني بتلك الجريمة.

التف مراسلو الصحف حول العاملين بالمستشفى لمعرفة أسباب تواجد الضحايا والجاني في المستشفى؛ لتقديم مجموعة أخرى من الأسئلة للرأي العام حول طبيعة الخلاف الذي يؤدي إلى قيام الأخ بقتل شقيقه وزوجته، في ظل ظروف حادثة ابنه الوحيد زياد، الذي لا يزال فاقدًا الوعي منذ أكثر من أسبوع على هذه الحادثة.

حاول المراسلون والصحفيون الوصول إلى زوجة الضحية لمعرفة أسباب الحادث، لكنها وبنتيها اختفين عن الأنظار.

كانت ردود أفعال جميع أفراد الأسرة الصمت وعدم الكشف عن أسباب ذلك الحادث.

* * *

(9)

ينفرد الطبيب بجاسر، بعد أن تمكَّن من الحصول على إذن لزيارته، لينبهه قائلًا:

- وافقتُك على التحليل بالرغم من عدم ملاءمة الوقت، ولأنك رجل قانون اعتقدت أنكَ ستتصرف بعقلانية، لكنك صدمتني بفعلتك.

ظلَّ جاسر مطأطئ الرأس لا يقوى على النظر إليه، غير قادر على الاستجابة لكلماته.

يستكمل الطبيب حديثه ليقول:

- على أي حال، حدث ما حدث، لكن شرف المهنة يُلزمني بإبلاغك قبل أن أتصرف، أنه أثناء أخذ أقوالي، سأبلغهم بتحليل الحمض النووي ونتيجته.

أمسك جاسر بيد الطبيب بسرعة وأمره قائلًا:

- «لا تفعل ذلك...»، ثم خفض رأسه مرة أخرى واستمر في حديثه بحزن:

- يكفي ما حدث لهم جميعًا، ولا أريد أن أؤذيهم أكثر من ذلك.. زوجته وبناته..

ثم نطق بثقل شديد:

- وزياد، لا يستحق أن يتألم أكثر من ذلك عندما يعلم أن والدته خائنة و...

قاطعه الطبيب:

- لكنكَ تعلم أن العقوبة ستكون مخففة إذا كانت دفاعًا عن الشرف.

- ما هو معنى الحياة بالنسبة لي الآن بعد أن فقدت كل مَن أثق به وأحببته؟

لم يكن آدم مجرد أخ أو توأم بالنسبة لي، في الواقع، كان هو النصف الآخر المرن وغير المقيد الذي كنتُ أتنفس من خلاله. كل ما أردتُ فعله ولم أستطع فعله بسبب عملي قام به آدم بدلًا عني..

حتى فريدة الحب الأول، علَّمتني ماذا تعني كلمة حب، كنت طوال حياتي أرفض تلك الكلمة ولا أعترف بها حتى تقابلنا وعرفت معها معنى الحب.. عرفت الحب يوم رأيتها لأول مرة..

في بداية زواجنا، كنت قد قررتُ تركها عندما علمتُ بمشكلتي الصحية، قررتُ أن أضحي بحبي وسعادتي من أجل سعادتها، لكنها رفضت وطالبتني بالصبر والعلاج.

تأوَّه وهو يكمل حديثه للطبيب قائلًا:

- آه! كانت تخدعني طوال هذا الوقت. تطلب مني الصبر والعلاج وتدَّعي الحب وهي...

حتى زياد حلم الأبوة الذي تمنيتُ وجوده، كان أقرب لقلبي من وريدي، وفجأة رأيته يُقتاد مني.. لم يعد لي!!

أصعب شعور هو الاستمتاع بامتلاك كل شيء ثم سرقته منك في نفس الوقت.

فريدة وآدم سرقا حياتي ووجودي..

كان بإمكاني العيش بسعادة بدون ابن لأنها كانت إرادة الله..

كان بإمكاني أن أعيش بدون فريدة، لكن ليس بإمكاني أن أحيا بدون آدم.

لن أستطيع أن أعيش في خيانة باقي العمر.

وقف الطبيب يودعه ثم عانقه وربَّت على ظهره ورحل..

لا يعلم لماذا يشعر بالألم والأسى تجاه جاسر وآدم وليس تجاه جاسر فقط. لا يعلم سبب ذلك إلى الآن! هل بسبب طلب آدم التحليل هو أيضا؟!

كانت ملامحُه يومها تحمل معاني غريبة، لا تحمل ملامح الغدر، بل ملامح حيرة وذهول تجعلك تشعر أن هناك لغزًا وراء تلك الحادثة لا يعلمها الجاني. ليس كل الجرائم يكون باطنها مثل ظاهرها؛ هناك لغز في تلك الحادثة.

***

منذ الحادث يرفض جاسر أى مقابلة أو زيارة لوالده. لا يريد أن يلتقي به أو بوالدته. آدم هو السند الحقيقي لوالديه، كان دائمًا هو المتكفل بأي مهام تخصُّ الأسرة، وهو الشريك الحقيقي في العمل لوالده.

كان يحدث نفسه: أعلم أنه يريد لقائي لمعرفة سبب ما أقدمت

عليه، لكن هل سيلومني؟

وهل ما فعلته يقابله لوم أو عتاب؟!!

هل سيلطمني على وجهي؟ وهل سيعود آدم بعدها؟

لماذا يريد لقائي؟

هل سيضمُّني ويربِّت على ظهري قائلًا:

- لا تقلق، أنا معكَ وفي ظهرك، ويطمئنني أنه سيوكِّل لي أكبر محامٍ ضد الخصم؟

لكن، مَن هو الخصم؟ هو نفسه والدي!

وإذا علم ما اقترفه آدم، فهل سيقبل بما فعلت ويقول إنه يستحق هذا المصير، أم أن مشاعره كأبٍ كانت سترفض وتقول: هناك حل؟

لم يفكر أحد في زياد، هل سيظل ابني إذا كُتبت له الحياة، أم...؟

لم تكن خيانة فريدة هي ماجعلتني أقتلهما، بل خيانة آدم.

لو خانتني فريدة مع رجال الأرض جميعًا لكان الأمر أهون وأقل ألمًا.

لا، لن ألتقي بهما أبدًا.. لا أريد أن أزيد من وجعي ووجعهما.. أخطأتُ عندما جبنت أن أقتل نفسي. كان عليَّ أن أقتل نفسي لتموت الحقيقة عن الجميع، ويبدءوا في حياة جديدة.

* * *

لم تغادر نادية وحسن المشفى نهائيًا. ظلَّا ماكثين في الغرفة المجاورة لغرفة العناية، يدعوان الله أن يشفي زياد ويتستعيد وعيه بشكل كامل، رغم أن الأطباء أجمعوا أنه مرَّ من مرحلة الخطر، فإنه ما زال غير واعٍ، بل يفيق أوقاتًا قليلة يسأل عن والده ووالدته، ثم يفقد وعيه مرة أخرى قبل أن يجيبه أحد، ولا يعرف أحد كيف يجيبه إذا استعاد وعيه بالكامل؟

في أحد الأيام، التقى المهندس حسن بالمهندس جمال الدين، كأول لقاء يجمعه به منذ يوم مقتل وحيدته. نظر إليه متسائلًا:

- ماذا حدث؟ أخبرني يا جمال! لماذا فعل جاسر تلك الجريمة؟ لماذا ذبحنا معًا؟!

لأول مرة يخرُّ جمال منهارًا على المقعد وهو ينتحب باكيًا:

- استيقظتُ يومًا على ابن مقتول وابن قاتل وحفيد بين الحياة والموت. لا أعلم سببًا لذلك. ذهبت أكثر من مرة لزيارته لمعرفة السبب، لكنه يرفض الزيارة..

أسير إليه خطوة وأتراجع خطوتين للخلف. أريد أن أقابله وأفهم الأسباب، وأتمنى أن يرفض الزيارة.

كل غريق دائمًا يتعلق بأي شيء من أجل إنقاذه، لكني أنا الغريق الوحيد الذي يتمنى أن يلقى حتفه وينتهي من هذا العذاب.

حتى هذا المسكين، لا أعرف هل يمهلنا الله الوقت حتى نعلم ماذا نقول له؟!

وهل نجاته هي الخير له؟

ينكس حسن رأسه وهو يردد:

- لنا العوض من الله، وحسبي الله ونعم الوكيل.

لن أتنازل يومًا عن حق فريدة، ولن أهدأ قبل أن أقتص لها منه.. أما هذا المسكين فهو العوض من الله، ولن أتنازل عن أملي في أن ينجو من أجلي أنا ونادية.

تركه على مقعده لا يقوى على الوقوف، ودلف إلى تلك الغرفة التي تفصله عن غرفة العناية المركزة، ينظر من وراء النافذة إلى حفيده الوحيد، آملًا أن يراه قد استعاد وعيه. يريد أن يضمه ويستنشق رائحة فريدة فيه. نعم، فهو يحمل نفس رائحتها وملامحها. قد ورث عنها كل شيء: بشرتها وحنانها، حتى انطلاقها وإقبالها على الحياة.

ينضم جمال إليه ينظر إلى زياد من وراء النافذة هو أيضًا. يراه نائمًا كالأطفال في سُبات عميق. يبدو وكأنه يرفض الاستيقاظ. كأنه يشعر بما يحيط به ويقرر الهروب وراء تلك الحالة، معركته القادمة شديدة معركة هو الخاسر الوحيد فيها معركة خسر فيها كل حصونه.

ينسحب جمال في هدوء تاركًا حسن على وضعه وراء النافذة.. يشعر بوهن عظيم يجتاحه. لم يعد يقوى على حمل نفسه. يرفع هاتفه ويبحث عن رقم آدم كي يهاتفه؛ هو الوحيد الذي يمكنه أن يُسنده..

لكن، أين يجده الآن؟! لم يتبق له أحد، حتى ساقاه لم تمهلاه، فوقع

مغشيًا عليه على الأرض، لا يشعر بأحد من حوله..

هُرع أحد الأطباء وإحدى الممرضات إليه كانا يمران بجانبه بالصدفة. توجها لمساعدته وإسعافه سريعًا..

يندفع حسن على صوت ضوضاء خارج العناية، ليرى جمال ملقيًا على الأرض. تلتقي العيون، لكنه لم يحرك ساكنًا، بل أدار ظهره في هدوء وتوجَّه إلى غرفة نادية لينضم إليها ويشدَّ كل منهما من عضد الآخر.

طلب الطبيب جهاز قياس الضغط سريعًا وعمل بعض التحاليل. كان الضغط مرتفعًا جدًّا، ولن يتمكن من خفضه عن طريق الحبوب، فطلب من الممرضة إعطاءه حقنة «لاسكس»، ثم تطلعه على نتيجة التحاليل.

يسأله الطبيب:

- مهندس جمال، هل تفضل الاتصال بالسيدة حرمك لإبلاغها؟

يشير إليه بالنفي، ثم يخبره بصوت مخنوق:

- أريد فقط أن تعطي لي منومًا. أريد أن أنام وأنفصل عن تلك الحياة. أريد الانسحاب من التفكير ومن الحديث المستمر لنفسي.

ربَّت الطبيب على كتفه. كان يقدّر حالته جيدًا ويرثى لحاله. تركه بعد أن طالب الممرضة بإعطائه عقارًا مهدئًا للأعصاب، وإبلاغه بنتائج التحاليل.

استلقى جمال فوق فراشه مغمض العينين، تلاحقه ذكرياته؛

ليرى وفاء في نافذة المنزل تنتظر قدوم جاسر وآدم من المدرسة؛ ليُطلعاها على نتيجة الثانوية العامة.. وعند رؤيتهما دلفت إلى الداخل سريعًا، وتوجهت إلى باب المنزل في انتظارهما قائلة:

- طمئنوني!

كانا يتسابقان معًا للصعود لإخبارها بالنتيجة، فصاح جاسر مندفعًا:

- نجحنا أخيرًا وانتهينا من هذا الكابوس. الآن يمكننا السفر والنزهة كما يحلو لنا.

انضم جمال إليهم قائلًا:

- مبروك، لكن الأهم هو المجموع، أخبرونا بالنتائج.

تبادل جاسر وآدم النظرات قليلًا، ثم تلعثم جاسر قائلًا:

- حصلنا على مجاميع تؤهلنا للالتحاق بالكلية التي نتمناها.

لم تشعر وفاء بنفسها إلا وهي تزغرد فرحًا بتفوق أبنائها.

أسكتها جمال بإشارة من يده وهو يوجّه حديثه إلى جاسر:

- أي كلية تقصد؟

شعر جاسر ببداية موجة عارمة من الغضب ستجتاح منزلهم الآن، ويتبدل جو الاحتفال إلى جو مليء بالنكد..

كان يخشى أن يعلن له عن رغبته في الالتحاق بكلية الشرطة، وترك فكرة دراسة إدارة الأعمال التي يأمل والده أن يلتحقا بها لإدارة شركاتهم.. لكنه قرَّر المواجهة أخيرًا قائلًا:

- كلية الشرطة العسكرية.

وقبل أن ينهره جمال اندفع آدم ليخفف من ثورة أبيه قائلًا:

- أما أنا فسألتحق بكلية التجارة بإذن الله، قسم إدارة الأعمال.

قاطعت وفاء حديثهم مرددة:

- لن يقبل والدك يا جاسر ولا أنا الالتحاق بكلية الشرطة. إذا لم تستطع الالتحاق بكلية التجارة مثل أخيك فيمكنك دراسة اللغات أو حتى الالتحاق بأي جامعة خاصة، لكن كلية الشرطة أمر مرفوض.

انسحب جمال إلى غرفة مكتبه، وبعد تفكير عميق منه أدرك أن قرار جاسر بالالتحاق بكلية الشرطة هو قرار صائب وموفق. دائمًا يلومه على اندفاعه واتخاذ القرارات من نفسه دون التروي أو الرجوع إليه. أفضل ما يقوّم هذا السلوك هو التحاقه بكلية الشرطة. كان آدم يتحلى بالهدوء والرزانة، مما يؤهله لإدارة الشركة فيما بعد، ومن المحتمل إذا عملا معًا في إدارة الشركة أن تنشأ بينهما خلافات مستمرة. يبدو أن جاسر على حق..

لم تستطع وفاء أن تقف أمام رغبة جاسر بعد مباركة جمال له، بل كان رأيها كأن لم يكن..

ومع الأيام حقق آدم نجاحًا كبيرًا في الجامعة وفي الشركة، وتغير سلوك جاسر بنسبة كبيرة.

وبعد أن قرر جاسر الارتباط بفريدة، تأكد جمال أنه القرار الأصوب في حياته..

- كلية الشرطة العسكرية.

وقبل أن ينهره جمال اندفع آدم ليخفف من ثورة أبيه قائلًا:

- أما أنا فسألتحق بكلية التجارة بإذن الله، قسم إدارة الأعمال.

قاطعت وفاء حديثهم مرددة:

- لن يقبل والدك يا جاسر ولا أنا الالتحاق بكلية الشرطة. إذا لم تستطع الالتحاق بكلية التجارة مثل أخيك فيمكنك دراسة اللغات أو حتى الالتحاق بأي جامعة خاصة، لكن كلية الشرطة أمر مرفوض.

انسحب جمال إلى غرفة مكتبه، وبعد تفكير عميق منه أدرك أن قرار جاسر بالالتحاق بكلية الشرطة هو قرار صائب وموفق. دائمًا يلومه على اندفاعه واتخاذ القرارات من نفسه دون التروي أو الرجوع إليه. أفضل ما يقوّم هذا السلوك هو التحاقه بكلية الشرطة. كان آدم يتحلى بالهدوء والرزانة، مما يؤهله لإدارة الشركة فيما بعد، ومن المحتمل إذا عملا معًا في إدارة الشركة أن تنشأ بينهما خلافات مستمرة. يبدو أن جاسر على حق..

لم تستطع وفاء أن تقف أمام رغبة جاسر بعد مباركة جمال له، بل كان رأيها كأن لم يكن..

ومع الأيام حقق آدم نجاحًا كبيرًا في الجامعة وفي الشركة، وتغير سلوك جاسر بنسبة كبيرة.

وبعد أن قرر جاسر الارتباط بفريدة، تأكد جمال أنه القرار الأصوب في حياته..

وفجأة، انقلب كل شيء.

لم تغير الشرطة من اندفاعه، بل جعلته يُتقن التصويب على الهدف..

وفريدة، الفتاة الجميلة الرقيقة التي توسم فيها أن تضبط كفة الميزان، قضى عليها بطلقة واحدة، وكأنه قد أتقن القضاء على كل ما هو جميل وناجح في الحياة.

واليوم، يقف مغلول الأيدي أمامه، لا يملك أن ينجيه من حبل المشنقة، ولا يقوى على رؤيته والحبل ملتف على رقبته.

لا يعلم هل يريد القصاص منه، أم يريد فراره من القصاص!!

***

(10)

جلست نغم بجانب والدتها في غرفتهم في منزل جدها خالد، محاولةً أن تحدثها في أمر قتل والدهم على يد عمهم، لكن نجوى لم تتحدث أو تتفوه بأي كلمة حول الحادثة منذ حدوثها، حتى إنها لم تبكِ بعد يوم الحادثة. اكتفت بالصمت طوال الوقت..

سئمت نغم من تجاهل والدتها لهم؛ فلم تتمالك نفسها وهي تنفجر باكية، تجذب والدتها من ذراعها قائلة:

- عدم حديثكِ معنا يصيبني بالجنون. إذا لم تجيبيني أو تحدثيني فسأنتقل للإقامة عند جدي جمال وجدتي وفاء، وأطلب منهما أن أقابل عمي جاسر؛ ليوضح لي سبب قتله لوالدي. لا لن أسأله، بل سأقتله مثلما قتلني. سأنقضُّ على رقبته وأحيطها بيديَّ حتى أراه يختنق، مثلما جعلني أختنق في كل يوم وفي كل لحظة، ثم أتركه وأعيد الكرَّة مرة وراء الأخرى.. لن أجعله يرتاح ويموت بسهولة.

خنقتها الدموع فتركتها تنساب على وجنتيها مسترسلة وأكملت:

لكن أخشى أن أجبُن عن فعلها. كيف هان عليه ذلك؟! كيف استطاع أن يحرمني منه ويجعلني خصمًا له؟!

يوم حادثة زياد كنت أقف أبكيه وأبكي نفسي وأبكي عمي، فأنا أعلم بمدى تعلقه به، واليوم هان عليه أخوه!

أخبريني يا أمي، لماذا فعل عمي ذلك مع أبي وزوجته فريدة؟ ما الذي اقترفاه ليقوم بفعلته الشنيعة؟!

أما سمر فقد كانت تفترش الأرض في أحد أركان الغرفة صامتة لا تتحدث، تكتفي بالبكاء دون صوت. لا تستطيع أن تعبر عمَّا يجول بخاطرها أو بقلبها مثلما تفعل نغم.

كيف لها أن تخبرهم بمدى تعلقها بعمها؟!

كيف لها أن تخبرهم عن علاقتها به منذ نعومة أظافرها وهم أدرى الناس بها؟ كانت تنتظره كل يوم وترفض الذهاب إلى غرفتها حتى يعود وتطمئن عليه، حتى أثناء سفره كانت تعتزل الجميع حتى يعود وتلتقي به، تقصُّ عليه كل ما حدث لها مع صديقاتها أثناء فترة سفره أو مأمورية عمله.. كانت تشكو له والدها إذا تأخر عنها في أمر ما.

كيف تخبرهم أنها الوحيدة التي التاعت بوجع فقدان الأب والصديق؟!

لا تستوعب ما حدث، بل ترفض أن تصدقه. تعلم أن عمها حنون ولا يقوى على ذلك. لن يقوى على ألمها وجَرحها، ولن يقوى على فراقها.

حتى خالتها فريدة، لطالما كانت تداعبها قائلة:

- بدأت أشعر بالغيرة منكِ يا صديقتي. أصبح زوجي يسألني عنكِ كلما هاتفني. أخبريني ماذا فعلتِ معه جعله فاقد العقل تجاهك؟ ثم تضمها إلى صدرها وتقبِّلها بحنان.

لن أصدق كل ما يقوله المحيطون بها. لم يفعلها عمي جاسر. لا بد أنه شخص آخر هو الذي فعلها.. شخص آخر استباح أن يحرق قلبها على والدها الحبيب، وقنصه في رأسه على غفلة، واتهم عمها بدلًا

منه.

كانت والدة نجوى تستمع إلى شكوى حفيدتها كل يوم، وتربّت على كتفها، طالبة منها الصبر على الابتلاء حتى يتضح لهم كل شيء.

لم تستجب نجوى لصراخ نغم ولا لصمت سمر ولا لمحاولات والدتها العديدة..

لا تعلم بماذا تجيبهم؟

هل تخبرهم بخيانة والدهم مع خالتهم فريدة؟!

أم تخبرهم أن زياد ليس ابن عمهم كما يعلمون، بل هو أخٌ غير شرعي لهم؟

كلما ردَّدت نجوى تلك الكلمات بداخلها انتابها شعور مرير بالخذلان.

فجأة شعرت نجوى بدوار شديد يعصف بها ويفقدها قدرتها على الاتزان. حاولت أن تقف وتتوجه إلى الحمام؛ فهذا الشعور يجعلها تشعر بالغثيان وبرغبة في القيء..

تكرر هذا الشعور مرات عديدة في الأيام الماضية ولفترة طويلة، حتى بدأت والدتها تتشكك في الأمر، فسألتها مترددة:

- نجوى، ألا ينتابكِ شكٌّ أن هذا الدوار والشعور بالغثيان سببه احتمالية أن تكوني حاملًا؟

رفعت نجوى رأسها إلى والدتها فزعة ممَّا أخبرتها به، وهي تتعجب، كيف أنها لم تشكَّ في هذا الأمر! وضعت يدها تتحسس بطنها بشكٍّ

وريبة، ثم قالت:

- يجب أن أجري التحليل سريعًا، ثم ألقت نظرة على ساعة الحائط لتجدها تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا.

ما زال هناك وقت، عليها أن تُسرع بالذهاب الآن..

حاولت والدتها إقناعها بأن ترافقها إلى المعمل، إلا أن إشارةً من يدها كانت كافية لإعلان الرفض القاطع لمرافقتها لها.

بدَّلت ملابسها وخرجت، لكنها لم تستطع أن تقف أمام أمر والدها عندما وجدته ينتظرُها بالأسفل؛ ليتوجها معًا إلى المعمل.

كانت تنتفض مثل الطائر الضعيف الذي سقط من أعلى الشجر، لا يقوى على الطيران وفرد أجنحته. يرتاب من أي شيء يقترب منه.

أخبرتها الممرضة أنه يمكنها أن تنتظر لمدة ساعة لمعرفة نتيجة التحليل.

احتضن والدها يدها بيديه محاولًا أن يبثَّ فيها قليلًا من الطمأنينة والهدوء.

ألقت برأسها على كتف والدها تتذكر ليلتها الأولى معه. بعد أن أُغلقت عليهم غرفة نومهم في أحد الفنادق لقضاء ليلتهم بها قبل سفرهم لقضاء شهر العسل.

ضمَّ يديها بين يديه، وجذَبها على طرف الفراش ليتحدثا معًا، بعد أن شعر بخفقات قلبها المتلاحقة. داعبها قائلًا:

- كنت أشعر أن عمي خالد كاد أن يلكمني في وجهي عندما اقتربتُ منه قبل بدء الزفاف.

تضحك مقهقهةً وتسأله:

- صحيح، ماذا قلتَ له في أذنه؟! فقد شعرتُ أن ملامحه تغيرت قليلًا.. ماذا قلتَ؟ أخبرْني..

ضحك بلؤم شديد نافيًا ما حدث:

- لا أبدًا، لم أقل شيئًا.

لم تقبل إجابته وقالت في إصرار:

- بل قلتَ له شيئًا..

ثم ابتسمت ابتسامةً شريرة بعدها وقالت:

- من المؤكد أن مصور الفيديو صوَّر تلك اللقطة وسأشاهدها في شرائط الفيديو.

ضمَّها قليلًا وهمس في أذنها:

- لم أقل شيئًا. فقط أخبرتُه أنكِ من اليوم أصبحتِ مِلكي. يمكننا أن نخرج ونمرح كما يحلو لنا بدون موافقة كتابية عن كل حركة.

لكزته نجوى في كتفه لكزة خفيفة معاتبة:

- إلا المهندس خالد يا آدم، لم يجرؤ أحد قط من قبل على إثارة غضبه.

سألته دون أن تشعر:

- لكن تعلم، أريد منك إجابة حقيقية: هل أحببتني حقًّا؟ هل كنت تتألم لعدم اقترابنا في فترة الخطبة؟

داعبها قائلًا:

- لا، لم أحبكِ ولم أريدكِ يومًا، لكنني فقط شعرتُ بفراغ فقررت أن أتزوج كي أشغل نفسي قليلًا.. ثم عاتبها قائلًا:

- أتعجب أحيانًا من بعض تساؤلاتكِ. لماذا أقدمتُ على طلبكِ للزواج، ووافقت على شروط عمي خالد المجحفة؟ أليس حبًّا فيكِ؟ هل هناك شخص عاقل واحد على وجه الأرض يقبل بتلك الشروط؟

- لكني لم أشعر أنك كنتَ تحبني أو تشعر بي أثناء الدراسة!

- قبل التحاقي بالجامعة أعددتُ نفسي على أن تلك الفترة معدة فقط للدراسة مهما مال القلب. أردت أن أسعد أبي وأنهي تلك الفترة سريعًا، خاصة بعد أن وضع ثقته فيَّ وجعل لي حقَّ التوكيل والإدارة.. ثم نظر إلى ساعته قائلًا:

- ألم تشعري بالجوع؟

كانت تلك الكلمات هي آخر ما تتذكره عن يومها منذ تلك اللحظة، منذ أن بدأت أول أيامهما معًا.. كانت مشاعر أخرى وحياة أخرى لا تقارَن بمشاعرها السابقة.. حياة محت كل شكوكها القديمة حتى تناست معها أمر فريدة، رغم وجودهما ولقائهما اليومي معًا، فإنه كان حريصًا على زرع الثقة بينهما.

حتى بعد أن انتقلت فريدة إلى الفيلا مرة أخرى وتركت الإسكندرية بعد زواجها بأشهر قليلة، وبعد ظهور بوادر الحمل عليها جلية.

كان وجودها أمرًا حتميًا؛ فسفرها للإسكندرية كان لفترة مؤقتة، لكن بعد تعدد انتقالات جاسر إلى مدن ومحافظات مختلفة، كان من الصعب عليها أن ترافقه في كل انتقالاته، وخاصة بعد الحمل.

أدخل خبر حمل فريدة الفرحة على كلا الأسرتين، ولم يمر سوى شهرين فقط وتأكدت نجوى من أمر حملها هي أيضًا..

امتلأ البيت بهجة وسرورًا، واكتمل الفرح لقرب قدوم أحفاد جدد..

كانت وفاء تجلس بين كناينها تقصُّ عليهم ذكرياتها مع أطفالها في الصغر، وأنه بقرب فترة حملها سوف يصبح الأحفاد مثل التوأم لا يفرقهم شيء.. واقترب موعد الوضع، ووضعت فريدة ابنها الوحيد زياد، وبعد شهرين وضعت نجوى ابنتها الأولى نغم، رغم أنها كانت تتمنى إنجاب صبي، إلا أنها فرحت بنغم فرحة عارمة..

وبعد أن أكملت نغم عامين من عمرها، استيقظت نجوى في أحد الأيام تشعر بدوارٍ شديد وألم مستمر في أسفل بطنها. حرصت فريدة على خدمتها ومحاولة مداواتها بعقاقير مسكِّنة، لكن ظلَّ الدوار مستمرًا، فما كان منهما إلا الذهاب إلى الطبيب الذي طالب بإجراء بعض التحاليل، وحينها ارتبكت فريدة وتساءلت:

- هل هناك أمر ما ترتاب منه يا دكتور؟

ابتسم الطبيب قائلًا:

- أرتاب! لا أبدًا، هي فقط أعراض حمل، وطلبتُ التحليل للتأكد، لكن ما أرتاب منه حقًّا هو كيف لم تفكِّر أيٌّ منكما في أن يكون هناك حمل؟! أنها أعراض واضحة، وقد سبق لكما الحمل من قبل!

أجابته نجوى بصوت متهدج:

- لم أشعر بتلك الأعراض أولَ الحمل، بل شعرتُ بها بعد معرفتي بالحمل بفترةٍ، ولم أربط الأحداث بعضها ببعض.

لم تحاول فريدة أن تجيب أو تبرر الأمر، فلا أحد يعلم أن حملها لم يكن بالطريقة الطبيعية، وبالطبع له أعراض أخرى مختلفة.

* * *

تقدمت الممرضة من والد نجوى قائلة:

- نتائج التحليل ظهرت يا فندم. مبروك، المدام حامل في الأسبوع السابع. إذا أردتَ مقابلة الطبيب المختص اليوم فيمكنك دفع قيمة الكشف فقط والانتظار قليلًا.

تسلم والدها النتيجة ونظر إلى نجوى متسائلًا:

- هل تستطيعين الكشف الآن للاطمئنان على الجنين؟

لكنها اكتفت بإشارة من رأسها ترفض الأمر، وقالت وهي تقف بوهن شديد:

- أبي، أريد الذهاب للمنزل.

لم تتفوَّه بكلمة أخرى طوال رحلة الرجوع إلى المنزل. تتذكر يومها مرةً أخرى عندما علمت بخبر حملها في سمر، والفرحة التي انتابتها عندما تأكدت من أمر الحمل. ظلت تقصُّ على فريدة حلمها بأن يرزقها الله بأخٍ لنغم، فقد حُرمت من وجود أخٍ لها، ولا تتمنى أن تُحرم نغم، ثم مازحتها قائلة:

- ألا تشعرين ببعض الغيرة؟ عليكِ أن تلحقي بي سريعًا وتحملي أنتِ أيضًا حتى يتكرر الأمر، لكن هذه المرة أنا أُرزق بصبي وأنتِ بفتاةٍ مثل القمر تشبهكِ يا فريدة.

رسمت فريدة بسمة على شفتيها قائلة:

- لا يا نجوى، أنا اكتفيتُ بزياد. لا أريد إنجاب طفل أو طفلة أخرى. كما ترين، نحن أسرة تحدد النسل. اكتفت أمي بي، وأنا اكتفيت بزياد.

حاولت نجوى إقناعها أكثر من مرة، لكنها كانت في كل مرة تغير الحديث، وفي آخر مرة احتدَّت فريدة قائلة:

- قلتُ لكِ مرارًا لا أريد إنجاب أطفال مرة أخرى، لماذا تستمرين في الإلحاح عليَّ؟

ثم حاولت أن تسيطر على نفسها مرة أخرى وتخفف من حِدتها مسترسلة:

- أخشى أن يستمع جاسر إلى حديثكِ ويطالبني مرة أخرى بالحمل مثلما حدث قريبًا، وأنا لن أكرر هذا الأمر مهما حدث، ولن يحدث وقتها سوى زرع الخلافات بيننا.

ومن حينها لم تتحدث نجوى في الأمر مرة أخرى، خاصة بعد إنجاب سمر وتعلُّق جاسر وفريدة بها تعلقًا شديدًا، حتى إن جاسر كان يحملها طوال وقت تواجده في البيت، لم يكن يتركها إلا في أوقات نومها فقط، وفي أوقات عديدة كانت سمر تقضي الليل في جناح عمها معه ومع خالتها فريدة.

صفَّ والدها السيارة أمام المنزل، ثم دار إليها يفتح مقبض الباب ويمسك بيدها؛ كي يصعدا معًا.

كانت والدتها تنتظرها على باب منزلهم وهي قلقه. همس خالد قائلًا:

- التحليل أظهر أنها حامل في الأسبوع السابع، لكنها لم تقوَ على الانتظار للكشف عند الطبيب المختص، وفضلت أن ترجع لتستريح قليلًا.

رافقتها والدتها إلى غرفتها محاولة أن تخفف عنها قائلة:

- أراد الله أن يعوضكِ فراق آدم ورزقكِ بمولود جديد.

لكن نظرة نجوى إلى والدتها أصابتها بالخوف؛ حيث كانت تنظر إليها بحدة وغضب، وتقف حائرة لا تدري ماذا تقول.

سحبت نجوى يدها من يد والدتها وذهبت إلى حقيبة يدها الملقاه في خزانتها، وأخرجت منها ملفًّا ورقيًّا وقدمته إلى والدتها قائلة:

- ما رأيكِ في هذا؟ هل ما زلتِ على رأيكِ أن الله عوضني بفراقه بمولود جديد؟ انظري..

أخذت الأم تحاول أن تفهم أو تستوعب ما دُوِّن داخل هذه الأوراق، لكنها لم تستوعب شيئًا، فسألت:

- ماذا يعني هذا الكلام؟

- يعني أن آدم هو الأب الحقيقي لزياد وليس جاسر!

تطابق تحليل الحمض النووي مع آدم يا أمي..

علمتِ الآن سبب صمتي؟ علمتِ الآن سبب عدم ردِّي على نغم وسمر؟ ماذا أقول لهما؟ أخبريني..

والآن، عوضني الله بمولود جديد.. وما هو العوض عن خداعي طوال تلك الأعوام؟

هل تعلمين كم مرة حملتُ زياد على ذراعي أهدهده وألاعبه وأنا مخدوعة في أمره؟

هل تعلمين كم مرة شاركت فريدة في أمر يخصه يقلقها؟

هل تعلمين كم مرة كنتُ أتعجب من حديث جاسر عن صفات زياد المطابقة لآدم حتى في نوعيات الطعام المفضلة؟

هل تعلمين أن آدم لم يتناول قط طعامه دون أن يجلس زياد بجانبه يشاركة الطعام؟

أحيانًا كنت أشعر بالغيرة قليلًا؛ لأنني لم أملك أن أنجب له ولدًا يحمل صفاته مثلما استطاعت فريدة أن تنجب زياد لجاسر، ولكن من عجائب القدر أنها أنجبته لآدم وليس لجاسر. فرقتهما الحياة ولم

يتزوجا. ظلَّ هناك رابط يربطهما «زياد».

تقف رجاء غير مصدقة تلك الأوراق متسائلة:

- مَن أعطى لكِ هذه الأوراق؟

قصت نجوى عليها ما حدث قائلة:

- ذهبتُ يومها إلى المشفى للاطمئنان على زياد، لكني لمحت آدم يهرول إلى الغرفة وفريدة تلحق به. ذهبت وراءهما وقلبي يخفق من الخوف والقلق على زياد، ظننت أن هناك أمرًا ما حدث له. دخلا الغرفة معًا وأغلقا الباب وراءهما، وقبل أن أدقَّ على الباب وأفتحه لأنضم إليهما، سمعتُه وهو يسألها بغضب وبصوت عالٍ:

- هل يمكنكِ إخباري كيف ومتى حدث هذا؟

فتسأله هي:

- ما الذي تتحدث عنه؟ ولماذا تتحدث معي بهذه الطريقة؟

فأجابها:

- أظهرت نتائج تحليل الحمض النووي لي وزياد إثبات نسبه لي!

فأجابته:

- كيف تجرؤ أن تسألني عن هذا وأنتَ تعرف كل شيء؟

ولم أشعر إلا وجاسر بجانبي يستمع إلى ما استمعتُ إليه. لم يتمالك نفسه.. ركل الباب بقدمه بقوة جعلتهما يلتفتان مفزوعين، ينظران إلينا في خوف وهلع بادٍ على ملامحهما، وقبل أن يتفوَّه أي

منهما بكلمة قتلهما جاسر معًا بطلقتين في الرأس. لم أفكر في شيء لحظتَها. فقط اقتربت من آدم أتحسس نبضه، ورأيت تلك الأوراق مبعثرة حوله. حملتها وأخفيتها في حقيبتي، ورحلت دون أن أنبس بكلمة واحدة. لم يترك لي جاسر وقتًا أسأله لماذا فعل ذلك بي؟

ثم تأتين أنتِ يا أمي وتقولين لي: عوضكِ الله!

وأخذت تضرب بطنها بصورة هيستيرية قائلة:

- لا أريد هذا.. لا أريد أن أحمل شيئًا آخر منه داخل أحشائي.. لا أريد.. لا أريد.

انضم والدها سريعًا إليهما بعد أن سمع صوت صراخها، وحاول أن يسيطر عليها هو ووالدتها، محاولين إمساك يدها وكفها عن ضرب بطنها، طالبًا من نغم أن تتصل بطبيب الأسرة كي يحضر إليهم سريعًا.

***

(11)

داخل قاعة المحكمة

تقف النيابة للمرافعة:

- سيدي القاضي، لقد تم القبض على القاتل في مسرح الجريمة، وقد اعترف اعترافًا كاملًا دون أي ضغط بقيامه بها، وقد عُثر على سلاح الجريمة بحوزته..

لقد استغل المتهم قُدرته وتفوقه في الرماية والتصويب، واستطاع أن يقضيَ على ضحاياه بطلقتين نافذتين في رأس كل منهما، دون أي رحمة أو شفقة تجاه رفقاء العمر، وها هي ذي نتيجة الطب الشرعي أمام سيادتكم، جاءت لتبين لنا تطابق بصمات القاتل على سلاح الجريمة، و بعد إجراء التحاليل الطبية له، ثبت خلوُّ العينة من أي أثر لوجود مخدِّر، وأن الجاني لم يكن يُعاني من أي مرض نفسي أو حَمله على تنفيذ تلك الجريمة البشعة.. وبسماع أقوال الشهود، لم يتبين لنا أيُّ دافع وراء الجريمة.

سيدي القاضي، نحن أمام قضية مكتملة الأركان، و...

ينتفض الجميع على صوت سيدة تندفع من باب المحكمة مقاطعة كلام النيابة، قائلة بصوتٍ مرتفع:

- بل هناك دافع سيدي القاضي!

يلتفت جمال إلى الصوت ليجد نجوى تتقدم إلى طاولة المحكمة وهي تحمل أوراقًا تُقدمها إلى القاضي قائلة:

- هناك دافع قوي للقتل سيدي القاضي.

تضجُّ القاعة بأصوات فوضوية.. يطرق القاضي الطاولة أمامه ثم يتوجَّه إليها بالحديث قائلًا:

- اسمكِ وسنكِ وصفتكِ.

تجيبه نجوى:

- نجوى خالد القاضي، زوجة المجني عليه، العمر ٤١ عامًا، دكتورة في كلية التجارة، جامعة القاهرة.

- ما تلك الأوراق المقدَّمة؟ ومن أين حصلتِ عليها؟

- هي أوراق ثبوت نفي نسب الشاب زياد جاسر جمال الدين إلى والده جاسر جمال الدين، وتقرير آخر بثبوت نسب الشاب زياد جاسر جمال الدين إلى آدم جمال الدين..

ازدادت الضوضاء داخل القاعة وتعالت الأصوات. صرخ جاسر مكذبًا كلامها قائلًا:

- كذب سيدي القاضي، كذب..

ينهره القاضي على صراخه مطالبًا إياه بالصمت حتى يُؤذَن له.

يسألها القاضي:

- من أين حصلتِ على تلك الأوراق؟

- كانت تلك الأوراق يحملها آدم في يده قبل الحادثة. عندما

اقتربت منه بعد الواقعة وجدتُها بجانبه، فاحتفظت بها ولم أُظهرها بسبب الصدمة.. واليوم، كان عليَّ أن أُظهر دوافع القتل الحقيقية.

تصرخ نادية وحسن، متهمين نجوى بالافتراء على ابنتهما القتيلة باتهامها بفعل شنيع، مهددين إياها بمقاضاتها على تلك الاتهامات الكاذبة.

يطرق القاضي مرة أخرى فوق الطاولة، مهددًا بطرد أي شخص يتحدث داخل قاعة المحكمة.

وجَّهت نجوى حديثها إلى القاضي طالبةً منه استجواب الطبيب؛ للتأكد من حقيقة تلك الأوراق.

يقرر القاضي تأجيل القضية لمدة أسبوع واحد فقط؛ لحين استدعاء الطبيب المذكور للشهادة.

تركت نجوى القاعة مسرعة قبل أن يتزاحم الصحفيون والمراسلون حولها.. يُمسكها خالد من ذراعها ويُحيطها بجسده مخبئًا إياها من كاميرات المصورين والمراسلين.

تتصدر أخبار هذه الجلسة كل الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي.. تساؤلات عديدة يتساءلها الناس على صفحاتهم حول إمكانية تغيير اسم الشاب محل القضية من «زياد جاسر» إلى «زياد آدم»! وهل له حق شرعي في والده الحقيقي، أم يظل الابن يُنسب للفراش؟

تتصدر مناقشة تلك الحادثة البرامج التلفزيونية، وتستضيف أكبر

الشيوخ ورجال الأزهر؛ لإعطاء فتوى حول وضع هذا الشاب الصغير الذي وقع ضحية خيانة الأم والعم..

وبرامج أخرى تهتم بالشقِّ القانوني حول تصنيف هذه الجريمة: هل تعد دفاعًا عن الشرف، أم تصنف تحت مسمى القتل العمد؟

ينفرد خالد بنفسه داخل غرفته يتابع آراء المتخصصين في البرامج والقنوات الفضائية. تنضم إليه زوجته معاتبة:

- هل أنت راضٍ عمَّا أقدمت عليه نجوى؟ راضٍ عن تلك الفضيحة التي تسببت فيها لبناتها.

ظلَّ خالد صامتًا قليلًا قبل أن يعترف لها قائلًا:

- أتصدقينني إذا أخبرتكِ أنني لا أعلم الصواب من الخطأ؟!

لا يمر كل فرد منا بكل المواقف والظروف المتشابهة كي يتسنى له معرفة الصواب من الخطأ. الخيانة حرام شرعًا.. نعلم كلنا ذلك، ونعلم الحدود. إذا اكتشفنا هذا الأمر مبكرًا وطلبت نجوى الطلاق لكنتُ وافقتُها على الانفصال عنه؛ لأنه غير أمين، لكن في هذا الموقف لم يعد الأمر نزاعًا حول علاقتها به، بل الأمر تعدى ذلك بكثير، ولا أعلم ما هو الصواب وما هو الخطأ.. حقيقةً لا أعلم.

تجادله زوجته قائلة:

- وماذا عن نغم وسمر؟ ماذا عن سمعتهما؟

أبٌ خائنٌ قُتل على يد أخيه! هل تتوقع أن ينسى الناس ما حدث؟! وماذا عن الطفل القادم بلا ذنب؟

لم ولن أوافق أبدًا على تصرف نجوى، بل يمكنني الجزم بأنه خطأ جسيم، وأنتَ ساعدتَها عليه.

يسخر خالد من حديثها قائلًا:

- تتحدثين وكأن آدم قد مات في حادث سير.. قضاء وقدر، وأن ابنتكِ قد أفشت سرَّه بعد موته ولم يقتل على يد أخيه.. ما الفرق؟

- فرق كبير. كان يتحتم عليها أن تقابل جاسر وتواجهه بما حدث، ثم تتحول القضية من قتل عمد إلى قتل بالخطأ.. أثناء تنظيف سلاحه مثلًا كما نسمع كل يوم.

- تنظيف سلاح أودى بروح شخصين! لم يكتفِ بقتل خطأ واحد بل اثنين! تنظيف سلاح على هيئة قنص في الرأس!

غضبت زوجته من سخريته من حديثها لتجيبه بحدة:

- شجارٌ أفضى إلى موت.. أي شيء آخر غير الخيانة يا خالد. أنت تعلم جيدًا ما معنى فضيحة كهذه يتركها الأهل للأبناء.

ثم تشير إلى التلفاز قائلة:

- انظر.. صورة ابنتكَ في قاعة المحكمة وحديثها عن كشف الخيانة، وصور متتالية لفريدة وآدم.. حتى الصفحات الصفراء استغلت الأحداث وبدأت في تأليف قصص وحكايات كاذبة عن نغم وسمر، وعلاقتهما بزياد.

اختلفت حياة اليوم عن السابق.. التطور التكنولوجي مع عدم

وجود ضمائر حية أدَّى إلى تصوير كل شيء، وتزييف الحقائق، ونشر الفضائح في كل مكان..

وقبل أن يجيب خالد عليها سَمِعا صوت رطمة قوية على الأرض.. فهُرعا إلى غرفة البنات ليجدا نغم تحاول السيطرة على سمر؛ فقد تحوَّل صمتها طوال الفترة الماضية إلى نار حامية تطول كل شيء حولها.. حطمت التلفاز المعلق على حائط غرفتهم بعد أن شاهدت مقاطع مختلفة من عدة برامج تتحدث عن والدها وعشيقته «خالتها فريدة»..

حتى هاتفها حطمته بعدما رأت كل تلك الرسائل المرسلة إليها على حسابها الشخصي من زميلاتها في المدرسة، يسألونها عن صحة هذا المقطع لوالدتها في المحكمة وهي تقدم دليل خيانة والدها لها مع زوجة عمهم.. مذيلة ببعض الكلمات التي تحمل من التشفي أكثر من الشفقة: «من المؤكد أنه مقطع مفبرك، لكن أردنا أن نُعلمكِ لاتخاذ إجراء شديد مع مروجي الإشاعات هؤلاء».

حاول خالد أن يجذبها من يدها لتهدأ قليلًا، لكن هيهات أن تستطيع السيطرة على كاظمي الغضب لأوقات طويلة.. يتحول غضبهم إلى قوة عارمة تُشبه انفجار طنجرة الضغط إذا ازداد الضغط بداخلها.. ستظل ترتطم وتنفجر في كل صوب حتى تخور قوتها وتنهار..

مرَّ أكثر من ساعتين على هذا الوضع حتى سقطت على الأرض مغشيًّا عليها..

رفعها جدها على فراشها بعد أن فَقدَ معها ما تبقى من قوة.

***

لم يختلف ما حدث لسمر كثيرًا عمَّا حدث لجدتها وفاء، بعدما علمت ما حدث في المحكمة.

رغم رفض جمال حضورها إلى المحكمة خوفًا عليها من لقاء نادية، وخوفًا من رؤية جاسر خلف القضبان، فإن القنوات الإلكترونية لم تُقصر في نشر وقائع المحاكمة على الهواء مباشرة.

هاتفت الخادمة المهندس جمال قائلة:

- أسرع يا باشمهندس، مدام وفاء ظلَّت تصرخ وتُكذب ما سمعته وتحطِّم كل شيء، حتى وقعت مغشيًّا عليها، لا أعلم كيف أنقذها؟

أغلق جمال الهاتف، واتصل بأحد الأطباء المقربين للأسرة يخبره بحالة وفاء؛ ليأتي معه لإسعافها.

وصل الطبيب إلى المنزل سريعًا، وبعد الكشف على وفاء أخبر المهندس جمال بأنها تعرضت لضغط شديد أدى بها إلى حالة انهيار عصبي، وفي هذه الحالة تهرب المريضة إلى عالم آخر رافضة الرجوع إلى عالمنا لفترة من الوقت.

يحاول جمال أن يستوعب الوضع قائلًا:

- إلى متى ستظل على هذا الوضع؟ وهل يجب نقلها إلى مستشفى؟

أجابه الطبيب مؤكدًا:

- بل من الضروري نقلها ووضعها تحت ملاحظة طبية مستمرة؛ حتى يتم إسعافها بالمحاليل وغيرها، ثم أنهى حديثه قائلًا:

- نأمل ألا تستمر على هذا الوضع طويلًا، وتستطيع أن تتغلب على هذا الاختبار القاسي.

* * *

(12)

ظلت وفاء محتجزة داخل نفسها لمدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس بدأت تفتح عينيها قليلًا، وكانت أول كلمة نطقت بها:

- هل عُقدت المحاكمة؟ هل حَكم القاضي؟

لازم الصمتُ كل طاقم التمريض؛ فقد أكد الطبيب ضرورة عدم نقل أي أخبار لها عن هذه القضية، وعدم الحديث أمامها عن أي شيء يخص الأبناء.

عندما علم جمال بإفاقة وفاء هُرع إليها ليطمئن عليها؛ فلم يتبقَّ له من الحياة سواها. لكنه بأمر الطبيب لن يتمكن من إخبارها بأي شيء عن القضية.

هل يُخبرها أنه من الممكن تخفيف الحكم على جاسر إذا تم تأكيد الخيانة؟ أم يُخبرها بأثر هذه الفضيحة على بنات آدم؟

هل يبشرها ببدء استجابة زياد للحياة مرة أخرى؟ أم يخفي عنها كل شيء كما طالبه الطبيب؟

إذن، عمَّ يُحدثها؟!!

فَتح باب الغرفة ليجدها مثبتة عينها في اتجاهه قائلة:

- أنتظركَ منذ وقت طويل.

يربت على رأسها بحنان:

- بمجرد أن علمتُ بتماثلكِ للشفاء تركتُ كل شيء وهُرعت إليكِ

لرؤيتكِ.

- متى موعد المحاكمة؟

تلعثم قليلًا.. يفكر كيف يجيبها..

تساءلت مرة أخرى بانفعال:

- أجبني يا جمال، متى موعد المحاكمة؟

هل تم الحكم أثناء غيبوبتي؟

هل حُكم على جاسر؟

لم يستطع أن يخفي الأمر عنها خوفًا من انهيارها مرة أخرى، فأجابها:

- بعد غدٍ موعد الجلسة.

هدأت وفاء قليلًا ثم قالت له آمرة:

- سوف أحضر الجلسة.

أعلن رفضه لقرارها، لكنها كانت أكثر حِدةً وانفعالًا وهي تكرر كلامها:

- قلتُ لكَ سأحضر الجلسة. أنا لا أطلب منكَ إذنًا بالموافقة، بل أخبركَ كي تأتي باكرًا لأخذي معكَ، وإن لم تفعل فسأذهب بمفردي.

* * *

صباح يوم الجلسة حاول الطبيب المعالج أن يثنيها عن الذهاب، إلا

أنها كانت عنيفة جدًّا تجاه أي رفض لقرارها، فما كان منه إلا مَنَحها إذنًا بترك المشفى تحت مسئوليتهم الشخصية.

***

داخل قاعة المحكمة

كانت نادية وحسن يجلسان في الصفوف الأمامية من الجانب الأيسر، وفي الصفوف التالية تجلس نجوى ووالدها..

أما وفاء فقد جلست بجانب جمال في الصف الأول من الجانب الأيمن وراء محامي الدفاع عن جاسر.

بدأت المحاكمة بطلب الطبيب للإدلاء بشهادته.

وبعدما سأله القاضي عن اسمه وسنه ومهنته، طالبه بترديد القَسَم:

- أقسم بالله العظيم أن أقول الحق.

- أخبرنا بكل ما تعلمه عن تحليل الحمض النووي للجاني والمجني عليه، ومطابقته للمريض المدعو زياد جاسر جمال الدين.

بدأ الطبيب يقصُّ كل ما حدث منذ بداية وصول زياد إلى المشفى، إلى زرع بذور الشك عندما تطابقت فصيلة الدم مع العم وابنة العم فقط..

- هل تم تحليل الحمض النووي لكل من المجني عليها فريدة حسن عبد الحميد، والمجني عليه آدم جمال الدين، والمريض زياد جاسر جمال الدين، والجاني جاسر جمال الدين؟

- نعم، تم أخذ عينة لكل منهم لعمل التحليل.

- هل كانت المجني عليها تعلم بأمر التحليل؟

- لا، لم تكن تعلم.

- وكيف أخذت منها العينة؟

- بحكم وجودها داخل المشفى برفقة ابنها، كان من الممكن طلب بعض التحاليل اللازمة في حالة احتياجنا لأمر يخص المريض..

وأثناء إدلاء الطبيب بشهادته صرخت وفاء بصوت عالٍ معلنة:

- سيدي القاضي، أريد أن أعترف بأمر هام.. أنا مَن قَتل آدم وليس جاسرا!

ساد الصمت أركان القاعة، وتوجهت أنظار الجميع إليها.

طالبها القاضي بالتعريف عن نفسها..

- وفاء عبد العزيز السيوفي، والدة الجاني والمجني عليه.

- هل أنتِ مَن قتلتِ آدم وفريدة؟

- نعم، أنا.

- رغم شهادة الشهود واعتراف الجاني؟

- سيدي القاضي، شهادة الشهود لا تكفي أمام اعترافي.

- الجاني أيضًا اعترف. أعلم أنكِ أمٌّ لشابين أحدهما قاتل والآخر مقتول، لكنَّ العدالة تُحتم عليكِ أن تقبلي بحكمها العادل، والجاني لا

بد أن يُعاقَب على جريمته.

- سيدي القاضي، اسمح لي أن أقصَّ عليكَ كيف قتلتُ آدم وفريدة وجاسر أولًا، ثم احكم بما شئتَ بعدها.

أشار إليها القاضي بالحديث.

* * *

قبل تسعة عشر عامًا

تجتمع نادية مع وفاء في النادي كعادتهما الأسبوعية.. يتسامران قليلًا، ثم تحدثت نادية قائلة:

- في الحقيقة، أريد أن أخبركِ أن فريدة قد خضعت للفحص الطبي منذ أيام؛ كي أطمئن أنها لا يوجد لديها مانع للحمل، والآن يجب أن يخضع جاسر للفحص هو الآخر لمعرفة أسباب التأخير.

رفضت وفاء حديث نادية وتركتها وذهبت إلى منزلها.

لكنَّ القلق قد تمكن وسيطر على كل تفكيرها. ماذا لو كان هناك ما يعوق جاسر عن الإنجاب؟

كانت تعلم أنه في بعض حالات التوأم يكون أحدهما عنده إعاقة عن الإنجاب، لكن هذا الأمر في حالة التوأم المتماثل وليس في حالة آدم وجاسر.

وفي المساء، انفردت وفاء بجاسر مطالبة إياه بالذهاب إلى طبيب مختص لمعرفة أسباب تأخر الحمل.

تعجَّب جاسر من طلب والدته، وحاول أن يثنيها عن هذا الطلب قائلًا:

- لا أنا ولا فريدة نرغب في الاستعجال بالإنجاب. ما زال الوقت مبكرًا.

لكنه ولأول مرة يرى والدته بكل هذا الغضب والإصرار وهي تأمره قائلة:

- لا أرى سببًا للاعتراض أو التأخير. ثم يبدو أنكَ لا تعلم أن فريدة قد ذهبت للكشف منذ أيام كي تُطمئن والدتها وتُطمئن على نفسها..

عليك الذهاب إلى الطبيب، ولا تخبر فريدة بالأمر، ولا تُعلمها بمعرفتكَ بأمر ذهابها للطبيب.

تصلَّب جاسر قليلًا وهو يحاول أن يستوعب ما أخبرته به والدته الآن. لم يتقبل فكرة إخفاء فريدة عنه هذا الأمر.

تركها جاسر وصعد إلى غرفته بعد أن وعدها بتنفيذ طلبها قريبًا، لكنه لم يستطع إخفاء الأمر عنها، وأخبرها في نفس الليلة، وعرض عليها أن يُحلها من استمرار حياتهما الزوجية، إلا أنها رفضت رفضًا قاطعًا، وطالبته هي أيضًا بإخفاء الأمر عن الجميع بما فيهم والدته ووالدتها.

انتهزت فريدة تلك المأمورية التي تتطلب نقل جاسر إلى الإسكندرية آنذاك، وسافرت معه. كانت تلك مأمورية تستغرق عدة أشهر، وهي تعد فرصة رائعة للابتعاد عن ضغط والدتها عليها وكثرة

التساؤلات حول تأخر الحمل والكشف وغيره..

بدأ جاسر في العلاج، وكان كلَّ فترة يجري بعض التحاليل التي لم تتغير نتائجها كثيرًا عن السابق. انتابه الحُزن والضيق، لكن في كل مرة كانت وفاء تحثه على الاستمرار والأمل، وعدم نقل حالته تلك إلى فريدة.

ومن حين لآخر، كانت وفاء تنتهز فترة إجازة آدم من الجيش وتواجده في فرع الشركة بالإسكندرية لمتابعة سير العمل، وتذهب إليهم في نفس الفترة؛ كي تطمئن على جاسر وتقضي أطول فترة ممكنة مع آدم.

قربَ انتهاء مدة المأمورية انفرد جاسر بوالدته وأخبرها قائلًا وهو يبكي:

- أعلم أنه لا أمل في العلاج يا أمي. أنا على يقين من ذلك.

ضمته وفاء إلى صدرها:

- أستغفر الله العظيم. لا تفقد الأمل، بل دع يقينكَ في الله عزَّ وجل، إنه قادر على تغيير الحال.

- كما أخبرتكِ يا أمي، لن أستمرَّ معها بعد نتيجة الشهر القادم. لن أضعف أمامها وأوافقها على الاستمرار.

نهرته وفاء:

- قلتُ لكَ اترك أمركَ لله ولا تتوقع الشر.

لم يغمض لها جفن يومَها. ظلت تفكر طوال الليل عن كيفية إسعاد جاسر وإرضائه بطفل يحمل اسمه ويقاسمه الحياة مع من أحبَّ.

قررت وفاء أن تمكث معهم في الإسكندرية حتى موعد التحليل للاطمئنان عليه.

كان آدم في إجازته في نفس الفترة. طلبت وفاء منه أن تنفرد به للذهاب إلى إحدى كافتيريات الكورنيش لتناول المُثلجات أمام البحر..

جلست وفاء قُبالته متسائلة:

- ألم تتحدث مع نجوى قريبًا؟

رطن آدم قليلًا قبل أن يُخبرها بأنه يحدثها خِلسة فقط في أوقات عملها، وأضاف:

- كما تعلمين، عمي خالد يمنعني من أي شيء، وبالطبع، الحديث أثناء العمل مختصر وغير كافٍ. أشعرُ بالغضب أحيانًا، وأحيانًا أخرى أتجنب الاتصال حتى لا أصل للاندفاع ببعض الكلمات السخيفة.

حاولت نادية التخفيف عنه قائلة:

- ما أجمل اللقاء بعد اشتياق! البُعد يزيد من المحبة.

أخبِرْني كم هو الوقت المتبقي تقريبًا على انتهاء فترة الجيش والاستعداد للفرح؟

- بقي شهران تقريبًا، ثم سيتم تحديد الموعد مع عمي خالد.

- إذن، هناك أمر حتمي يجب أن تقوم به في تلك الفترة.

تساءل آدم قلقًا:

- ما هو؟

أجابته بهدوء:

- بعض التحاليل التي يجب أن يتم إجراؤها قبل الزواج؛ للتأكد من سلامة الزوج والزوجة طبعًا.

تعجَّب آدم:

- هل خضع جاسر لتلك التحاليل؟

- للأسف، هذا ما وقعنا فيه من خطأ وقتها، ولهذا السبب قررتُ أن أطلب منكَ إجراءها كي تتلافى ما وقعنا فيه. ما سأقوله لكَ الآن لا أحد يعلم به مطلقًا، حتى والدك.

انتاب آدم توتر شديد..

- أخبريني.

- بعد الزواج بفترة، اكتشف جاسر أنه يعاني من بعض الأمور التي تعوق الإنجاب بصورة طبيعية، ويتطلب الأمر أن يكون الحمل بالتلقيح الصناعي، لكن لا بد أن يخضع للعلاج فترة،

وبالفعل، منذ انتقاله إلى الإسكندرية وهو يتابع العلاج؛ لذا أطلب منكَ أن يظلَّ هذا الأمر سرًّا بيننا، وأطالبك بإجراء التحاليل مبكرًا تحسبًا لأي أمر يمكن تداركه الآن قبل الزواج.

أخذ آدم يفكر قليلًا فيما أخبرته به والدته الآن، وقال:

- أهم شيء الآن هو الاطمئنان على جاسر، أما بالنسبة لي فسأبحث عن مركز للتحاليل وأفعل ما تريدينه يا أمي.

- إن شاء الله يستجيب جاسر للعلاج قريبًا، ولا داعي للبحث عن مركز، أعلم اسم ومكان المركز الذي يتابع جاسر فيه العلاج جيدًا. سأصحبكَ إليه لإجراء التحليل.

- هل تمزحين يا أمي؟ ترافقينني مثل الأطفال!

أعطي لي اسمه وأنا سأذهب إليه وأجري اللازم.

أخرجت وفاء من حقيبتها الكارت الخاص بالمركز، مع توضيح ما يتطلبه كل تحليل من استعدادات سابقة.

سألته:

- متى ستذهب؟

فكَّر قليلًا وهو يقرأ الكارت ثم قال:

- لا أعلم. دعيني أفكر. من المحتمل الإجازة القادمة.

ضغطت وفاء بقوةٍ على يده وقالت مندفعة:

- لا. قبل سفرك غدًا أو بعد غدٍ على الأكثر.

- لماذا كل تلك العجلة يا أمي؟!

- كي يطمئن قلبي.

زفر آدم زفرة ضيق قائلًا:

- بعد غد بإذن الله.

ثم نظر إلى ساعته ليجد أن الوقت مرَّ، وعليه أن يتوجه إلى الشركة. نهض سريعًا بعد أن أشار للنادل بالحساب، وهو يحثُّ والدته على النهوض كي يوصلها للمنزل ثم يلحق بموعده في الشركة.

وقفت وفاء قائلة:

- اذهب أنت إلى موعدك، أما أنا فأريد أن أتجول قليلًا على الكورنيش، ثم سأعود إلى المنزل بمفردي. لا تقلق.

ودَّعها آدم مسرعًا للحاق بموعده في الشركة.

لم يكن أمام وفاء وقتٌ طويل. عليها الذهاب الآن للقاء «هدى». تلك الفتاة المسكينة التي تعمل داخل المركز هي وزوجها. مسكينة تلك الفتاة، رزقها الله بطفلين بعد فترة طويلة من الزواج، ولكنهما للأسف الشديد يعانيان من مرض نادر يتطلب علاجًا باهظ الثمن، وما زالت رحلة البحث عن واسطه لإرفاق أوراقهما في سجلات العلاج على نفقة الدولة قائمة. لا يوجد عندهما معرفة قوية أو واسطة كبيرة تيسر عليهما الأمر مثلما يحدث مع الفنانين والإعلاميين من قرارات عليا بعلاجهم على نفقة الدولة؛ فهل يستوي هؤلاء العظماء الذين قدموا فنًّا عظيمًا وتقاضوا عليه أموالًا طائلة بهؤلاء المواطنين الكادحين بحثًا عن قوت يومهم؟!

اختبرهما الله بمرض نادر يفقدهما حواسهما حاسة تلو الأخرى، إذا

تاخر موعد أخذ جرعة الدواء المحددة، أو إذا لم يتمكنا من الحصول عليه من الأساس، حتى إن نظرهما قد تعرض للضعف الشديد.

ساعدهما فاعلو الخير كثيرًا، لكنه علاج مستمر يتطلب سنوات وسنوات.

كانت هدى وزوجها ياسين في الكافتيريا التي أخبرتهما وفاء بلقائهما فيها.

رأتها هي وزوجها يجلسان على الطاولة، يلتفتان يمينًا ويسارًا في انتظارها، وعند رؤيتهما لها وقفا أمام الطاولة في انتظارها. ألقت عليهما التحية، وأشارت لهما بالجلوس أمامها على الطاولة، وسألتهما:

- ما أخبار الصغيرين اليوم؟ هل استطعتما الحصول على الدواء؟

امتلأت عيون هدى بالدموع محاولة أن تسيطر عليها قبل أن تتساقط، فأجابها ياسين:

- للأسف يا مدام وفاء، لم يتمكن الصيدلي من إحضاره لنا. لا أعلم السبب؛ هل بسبب مطالبتي له بتقسيم سعره، أم لعدم وجوده بالفعل؟

فتحت وفاء حقيبتها وأخرجت مغلفًا ورقيًا ثم قدمته لهدى قائلة:

- أعتقد أن هذا هو العلاج المطلوب.. صحيح؟

خطفته هدى من يدها سريعًا غير مصدقة وهي تبكي، واقتربت كي تقبِّل يدها، لكن وفاء كانت أسرع وجذبت يدها سريعًا وهي تقول لها:

- لا تقلقي. إن شاء الله سيتم شفاؤهما.

كانت وفاء على يقين من أن الصدقات تُذهب الهم والغم وتُحقق الأمنيات؛ فقررت أن تتصدق عليهما؛ فهم أولى الناس.

شكرها ياسين وهو لا يعرف كيف يعبر عن شكره، وعرض عليها أن يقوم بخدمتها في أي شيء.

هدَّأت وفاء من نبرة صوتها قليلًا وهي تخبره بطلبها قائلة:

- نعم، يمكنكَ أن تساعدني بتقديم خدمة بسيطة لي.

اندفعت هدى قائلة:

- اطلبي أي شيء وسينفذه في الحال.

ترددت وفاء وهي تخبرهما قائلة:

- في البداية، سأتكفل بالعلاج كل شهر حتى تتمكنا من الحصول على قرار بعلاجهما على نفقة الدولة، وسأسعى معكما بإذن الله لتحقيق ذلك.. كل ما أطلبه هو طلب بسيط ومشروع.

تنتظر هدى وزوجها أن تفصح السيدة وفاء عن طلبها..

تستكمل وفاء حديثها:

- تعلمين أن جاسر باشا يخضع للعلاج في المركز منذ فترة..

أشارت هدى برأسها إيجابًا.

لكن الحقيقة لا يوجد أي تقدم حتى الآن..

موعد أخذ العينة الخاصة به غدًا أو بعد غدٍ. صحيح؟

تجيبها هدى:

- فعلًا، بعد غد هو موعده.

- بعد غد أيضًا سيأتي ابني السيد آدم توأم جاسر باشا لأخذ نفس العينة للتحليل.

تنتظر هدى أن تُفصح وفاء عن طلبها وقلبها يخفق وهي تشعر بأمر مريب قادم، فقالت:

- هل طالبه الطبيب أيضًا بنفس التحليل؟

قاطعتها وفاء:

- بل أنا مَن طالبتُه بإجرائه للاطمئنان عليه.

علَّق ياسين:

- إن شاء الله خير.. ولكن ما هو المطلوب منا؟

تنهدت وفاء قليلًا ثم قالت:

- أريد فقط تبديل العينات.

شهقت هدى بعد سماع طلب وفاء وقالت باندفاع:

- كيف يمكنني أن أبدل العينات؟ وما الداعي لذلك؟

- اصمتي قليلًا يا هدى لتفهمي ما أطلبه. أطلب منكِ أخذ عينة السيد آدم وإخضاعها للتحليل تحت اسم جاسر جمال الدين، أما

عينة جاسر فيتم إتلافها ووضعها تحت اسم آدم، وإخباره عن طريق الهاتف بأن العينة الخاصة به يجب إعادة أخذها نظرًا لتلفها بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

يتساءل ياسين:

- وماذا بعد تبديل العينات يا مدام وفاء؟ ما هو الغرض من التبديل؟

تحتدُّ وفاء قائلة:

- كنت أظنكما بحكم عملكما قد فهمتما. أريد تبديل العينة لاستخدامها في عملية التلقيح.

يتساءل ياسين مرة أخرى:

- وإذا تمَّ ما أمرتِ به وتم تبديل العينة وجاءت نتيجتها جيدة وتصلح لإجراء عملية التلقيح، فكيف يمكنكِ إحضاره مرة أخرى لأخذ عينة أخرى للعملية؟

- سؤالك مهم..

كما أخبرتك، يتم تبديل الأسماء، وبعد التأكد أن عينة آدم صالحة يتم إخباره بأن العينة تَلفث ويجب أخذ عينة أخرى، وهذه العينة ستكون هي العينة المُستخدمة للتلقيح.

- وماذا عن نتيجة تحليل السيد آدم بعد إعادة التحليل؟

باستخفاف قالت وفاء:

- سنخبره بالنتيجة الحقيقية بأنه سليم، ونقدم له النتائج الجديدة.

تقاطعها هدى:

- أليس من المحتمل أن تكون نتيجة جاسر باشا صالحة، وأن يكون العلاج قد أثمر عن تقدم واضح؟

تنظر وفاء إلى ياسين متمتمة:

- وهنا يأتي دور ياسين..

ينظر إليها ياسين بصمت منتظرًا طلبها..

- موعد تحليل جاسر في الصباح الباكر قبل موعد العمل، أثناء تلك الفترة يستطيع ياسين إخضاعها للتحليل باسم آخر مستعار وليس باسم جاسر، وفي نفس اليوم سيحضر آدم لإجراء التحليل المدوَّن عليه اسم جاسر، وبالتالي ستظهر نتيجة تحليل جاسر بالاسم المستعار أولًا.

وضع ياسين يده على جبهته محاولًا أن يستوعب كل ما قالته السيدة وفاء، ثم جذب العلاج من هدى وقدَّمه إليها قائلًا:

- أعتذر منكِ يا مدام وفاء. في الحقيقة طلبكِ أصعب بكثير من علاج أبنائي.. سأترك الأمر لله، ولن أقوم بتلك الجريمة.

انهارت هدى باكية وهي ترى علاج أبنائها يضيع من أمام عينيها قائلة:

- انتظر يا ياسين. دعنا نفكر قليلًا.

ينفعل زوجها عليها قائلًا:

- أنتظر ماذا؟! المدام تطلب منا خلطًا في الأنساب.

توقفه وفاء بحدَّة:

- ياسين، الزم حدودك. أي خلط بالأنساب هذا؟

أنت لا تعلم. إنهما توأم يحملان نفس الجينات والصفات الوراثية.

- توأم يحملان نفس الجينات والصفات الوراثية، إذن لماذا يتم تبديل العينات؟

يا مدام وفاء، فوِّضي أمركِ لله، وإذا أراد الله أن يرزق جاسر باشا فسيرزقه رغم أنف الجميع.

لم تتمالك وفاء السيطرة على نفسها وهي تجذب العلاج بقوة مهددة هدى قائلة:

- مثلما عليَّ الانتظار، عليكَ أيضًا الانتظار للحصول على موافقة العلاج على نفقة الدولة، وأنت ترى طفليكَ يفقدان حواسهما حاسة وراء الأخرى.. وهمَّت بالوقوف، إلا أن هدى أمسكت يدها متوسلةً باكية:

- أرجوكِ يا مدام وفاء، انتظري. سوف نقوم بتنفيذ كل طلباتكِ، أرجوكِ.

ثم نظرت إلى ياسين بتحدٍّ قائلة:

- إذا لم تقم بما طلبته مدام وفاء فسأقوم به وحدي.. بدونكَ،

وهمَّت أن تأخذ العلاج، لكن وفاء كانت أكثر دهاءً؛ حيث فتحت علبة الدواء التي كانت تحتوي على عدة أشرطة، وأخرجت شريطًا واحدًا فقط وأعطته لها قائلة:

- بعد التنفيذ سأسلمكِ باقي العلاج، وبعد نجاح العملية وإتمام الحمل سوف أسلمكِ مبلغًا ماليًّا كبيرًا يضمن لكِ العلاج لفترة طويلة.

رضخ ياسين لكلام هدى بعد أن فُطر قلبه عليها وعلى أبنائه.

وفي الموعد المحدد، ذهب جاسر إلى المركز لتقديم العينة، ثم توجه بعدها إلى عمله، وفي الظهيرة ذهب آدم لتقديم العينة، وعند استقبال ياسين له أخبره أن النتيجة ستستغرق يومين.

نفذ ياسين المطلوب منه كاملًا، وأخضع تحليل جاسر للاختبار، وأوضحت النتائج أنه لا يوجد تقدم مذكور يمكِّنه من إجراء عملية التلقيح، وبالفعل تم تبديل العينات وإبلاغ آدم بضرورة إعادة التحليل لأسباب معينة لم يفصحوا عنها.

تواصل المركز مع جاسر لإبلاغه بنتيجة التحليل الإيجابية..

هُرع جاسر إلى فريدة يُبشرها بما أخبره به المركز..

لم ترَ وفاء فرحة في عين جاسر مثلما رأتها ذلك اليوم.. أخذ يلفُّ ويدور بها ويقفز فرحًا مثل الأطفال، ثم توجها معًا إلى المركز للقاء الطبيب وتحديد موعد لإجراء العملية، بعد إخضاع فريدة لفترة علاج مدتها شهر.

وبسبب ظروف عمل جاسر، كان تجميد العينة أمرًا حتميًّا، وهنا

جاء دور إتمام الجزء الثاني من عمل ياسين..

مرة أخرى، تم استبدال العينة الخاصة بآدم وتجميدها، ووضع تقرير آخر باسم آدم يفيد بأن العينة سليمة وأنه لا يعاني من أي مرض يعوق الإنجاب.

وفي اليوم المخصص لإجراء عملية التلقيح، كان جاسر وفريدة ووفاء داخل المركز في انتظار تجهيز غرفة العمليات وتجهيز فريدة.. لكن جاسر فوجئ بمكالمة من العمل تطالبه بالحضور فورًا في مكتبه..

وقف جاسر حائرًا؛ فلا يمكنه التأخير، وأيضًا لا يستطيع أن يترك فريدة وأمه بمفردهما. لم يجد أمامه إلا نصفه الآخر "آدم".. هاتفه وهو في طريقه إلى مكتبه ليطلب منه الذهاب إلى المركز فورًا للوقوف مع فريدة، وأخبره بأن والدته سوف تخبره بكل شيء عند وصوله.

أخذت العملية وقتها وإجراءاتها الطبيعية، وتَحقق حلم جاسر وفريدة بالحمل، ورزقهما الله بـ "زياد".

***

صرخات داخل قاعة المحكمة صدرت من نجوى ونادية.. يدق القاضي على الطاولة مطالبًا بالهدوء، لتُنهي وفاء حديثها قائلة:

- مع الوقت نسيتُ كل شيء، أو يمكنكَ القول سيدي القاضي إنني تناسيتُ كل شيء.. لكن أراد الله أن ينكشف كل شيء بعد كل هذا

العمر..

والآن بعد كل ما حدث سيدي القاضي، اكتشفت أنني لم أجنِ أي شيء، بل خرجت صِفرَ اليدين من كل شيء.

***

(13)

بعد أن استمع القاضي لأقوال وفاء قرر تأجيل القضية للمرافعة، مع تقديم أوراق تُثبت صحة ادعاء السيدة وفاء عبد العزيز السيوفي، وما يترتب عليه من إجراءات لازمة، وقرر منع السيدة وفاء عبد العزيز السيوفي من السفر خارج البلاد.

وقبل أن تلتفت وفاء، كانت هناك يد تجذبها بقوة ثم تصفعها صفعة قوية على وجهها.. كانت نادية هي الفاعلة.. لم تتمالك نفسها إلا وهي تصفعها على وجهها صفعة تلو الأخرى. لم يقوَ جمال على الوقوف للدفاع عن زوجته.. بينما وقف المهندس حسن خلف زوجته يربِّت على يدها دون أن يحاول أن يوقفها عن لطم وفاء، بل كان يربِّت على يدها مواسيًا لها وداعمًا لموقفها في ذات الوقت.

أما جاسر فقد جلس على الأرض منهكًا ممَّا سمع..

كان وقع كلماتها على مسامعه أشدَّ ألمًا من ألم الخيانة المزعوم..

عقله يتفهم أن أخًا يخون أخاه في لحظة ضعف.. زوجة يتلاعب الشيطان بعواطفها وأحاسيسها وتقع فريسة للرغبة.. لكنْ أمٌّ تبحث عن العدل فتجور على الحق.. تنسب له ما ليس له تحت مسمى العدل! أي عدل ذلك، وأي كفة ميزان قد حكمت؟!

وما ذنب زياد في كل هذا؟ وما مصيره؟

وما ذنب فريدة وآدم في كل ما حدث؟

انسحب جمال الدين من القاعة دون أن يلتفت إليها.. يضم حسن

زوجته نادية ويرحل معها خارج القاعة وهي تصرخ بأعلى صوت مرددة:

- "حسبنا الله ونعم الوكيل"..

ينفضُّ الجميع عن وفاء.. يتبارى المصورون في التقاط صور كاملة عن الواقعة.. مانشتات في كل صفحات التواصل الاجتماعي تحت عناوين: "الأم تفجّر مفاجآت غير متوقعة"..

"الأم القاتلة".. "لن تصدقوا مَن القاتل في قضية قابيل وهابيل هذا العصر".. "براءة بطعم الحنظل".. "مفاجأة تلف حبل المشنقة حول رقبة الأم".. "أم تشارك ابنها في قتل شقيقه وزوجته".. "إعدام للأم والضابط"..

يحيط خالد ابنته ويدفعها للخروج من القاعة قلقًا عليها من الانهيار. اليوم فقط فقدت ابنتُه حب عمرها وشريك حياتها وأبا أبنائها..

خرجت وفاء.. أوقفت إحدى سيارات الأجرة واستقلتها، لكنها ترددت في الإجابة عليه عندما سألها عن الوجهة التي ترغب بالذهاب إليها..

ترددت قليلًا ثم أعطت له عنوان منزلها.. لا يوجد عندها مكان آخر غيره.. من المؤكد أنها ستواجهه.. ستواجه لهيب النار التي لطالما حاولت أن تتحاشاه وتبتعد عنه.

وصلت إلى الباب، ودقت الجرس. لم تفتح لها الخادمة، بل هو مَن

فتح لها الباب..

كان في انتظارها. أشار إليها أن تنضم إليه في غرفة مكتبه، وهناك سألها:

- لماذا أقدمتِ على هذا الجُرم؟

أجابت ببرود:

- جُرم!

- ألا ترين أن ما فعلتِه وأقدمتِ عليه جُرم؟ لماذا لم تخبريني بالأمر؟ أنتِ لم تخبريني بأن هناك أي مشكلة عند جاسر. لماذا لم تشركيني في الأمر؟

تصرخ فيه قائلة:

- أشركك؟.. كلمة غريبة لم أعتد عليها معك. منذ متى وأنتَ تحب أن يشاركَ أحد في أي أمر؟ منذ متى وأنتَ تملك وقتًا للاستماع؟ ألا تذكر.. أي مرة أطالبك فيها أن نجلس ونتسامر معًا قليلًا، كانت إجابتك: "مشغول وليس عندي وقت لكلام النساء"..

أسكتها بصوته العالي قائلًا:

- هل تساوي حديثًا عابرًا غير ذي أهمية بحديثكِ عن عدم قدرة أحد أبنائي على الإنجاب؟! أين عقلكِ؟

- عقلي أفقدتَه الثقة يوم تعاملتَ معي وكأنني مجرد مديرة منزل، تطهو وتنظف وتستقبل ضيوفك.. يوم قررتَ أنني بلا عقل يملك

القدرة على الفهم أو العمل أو اتخاذ أي قرار، فقررت أن أتحداكَ وأنفذ الأمر.. لولا خطأ بسيط وقعت به هَدم كل شيء.

- خطأ بسيط!

وماذا فعلتِ بعد أن قررتِ التحدي والتفكير للخروج من هذا المأزق؟ قررتِ أن تستغلي حاجة أم ضعيفة وزوج مكلوم في صحة أبنائه وضيق حاله لتحقيق جريمة يعاقب عليها الشرع قبل القانون.

- لم أستغلهما، بل ساعدتهما في إنقاذ وعلاج أبنائهما، وأردتُ أن يسعد جاسر وألا يُحرم من زوجته ولا من ابن يحمل اسمه ويكون سندًا له في الكبر.. أردتُ أن يشعر بلذة الأبناء ودفئهم، ولا أتركه يتلظَّى بنار الحرمان.

- من أعطى لكِ الحق في تحدي إرادة الله؟

- لم أفكر في تحدي إرادة الله.. فقط أردت أن أستفيد بالعِلم الذي منحه الله لنا.

يصرخ فيها قائلًا:

- أي علم هذا الذي تتحدثين عنه؟ إنكِ أقدمتِ على جريمة وفاحشة ثم تقولين "علم"!

- أي فاحشة؟ لم يكن بينهما أي فعل أو واقعة..

- أتعلمين ما هو الجُرم الحقيقي؟ الجُرم الحقيقي عندما يُعطى العلم للجهلاء فيصوبونه في صدورهم للقضاء عليهم بدلًا من أن يكون سلاحًا لحمايتهم والارتقاء بهم..

ألم يخطر على ذهنكِ أنكِ بفعلتكِ هذه تسببتِ في خلط للأنساب بينهم؟ ماذا لو أراد زياد الزواج من إحدى بنات عمه؟ هل يجوز أن يتزوج الأخ بشقيقته؟ وغيرها وغيرها من الاحتمالات..

ماذا جنيتِ بفعلتكِ تلك سوى خسارة كل شيء؟!

- كنت أبغي الدفء العائلي الذي حَرمتَنا منه.

يُلقي جمال بنفسه على أحد المقاعد بعد أن فَقَدَ كل قوته وهو يتساءل:

- وهل وجدتِ الدفء؟

لا فائدة اليوم من الكلام، فقد انطلق السهم ووأد كل شيء في رحلته، حتى استقر في قلبي وقلبكِ، فقتل الحياة وترك الروح تتلظَّى بنار الفراق.

***

داخل قاعة المحكمة، يترك القاضي ممثل النيابة يترافع عن القضية قائلًا:

- سيدي القاضي، بعد أن اطلعنا على كل الأوراق التي قدمتها زوجة المجني عليه، وبعد مراجعة ما ذُكر على لسان السيدة وفاء عبد العزيز السيوفي، تَبين وجود أدلة ودوافع لارتكاب الجريمة، وعليه فقد تأكدت النيابة من كون الجاني قد قام بجريمة شنيعة مع سبق الإصرار، وبالتالي نطالب سيادتكم بتطبيق أقصى عقوبة على المتهم جاسر جمال الدين.

وبعد أن أنهت النيابة مرافعتها، طلب محامي الدفاع الكلمة قائلًا:

- سيدي القاضي، بعد الاطلاع على كل الأوراق، أطلب من سيادتكم تغيير مسمى القضية بدلًا من "القتل مع سبق الإصرار والترصد"، إلى "قتل مع سبق الإصرار"، فكما تعلم سيادتكم ويعلم الجميع، أن المتهم يعمل ضابط شرطة، يحمل سلاحه طوال الوقت، فلم يكن السلاح هنا معدًّا من قبلُ للقيام بالجريمة، لكنه تواجد أثناء الحدث، ومن ثَم تم استخدامه.. لكن النقطة الهامة أنه لم يكن ينتوي القيام بهذا الفعل، لولا أنه قد علم بنتيجة التحليل وتبينت واقعة الخيانة.. وأي خيانة؟ خيانة الأخ.. توأم الروح.. طعن في الظهر من أقرب الناس. يمكنني القول إنه كان تحت تأثير الغضب والدفاع عن الشرف..

ثم أنهى الدفاع كلمته قائلًا:

- سيدي القاضي، لا شيء يفوق العدالة، ونأمل من سيادتكم إلقاء نظرة عطف على هذا المتهم الذي فارق روحه يوم الحادثة، بتخفيف الحكم عنه.

يعطي القاضي الكلمة لمحامي المجني عليها فريدة حسن عبد الحميد قائلًا:

- سيدي القاضي، بصفتي محامي الدفاع عن حق المجني عليها، أطالب سيادتكم بتوجيه تهمة التحريض على القتل إلى السيدة "وفاء عبد العزيز السيوفي"، نظرًا لما اقترفته من جريمة يعاقب عليها الشرع أولًا ثم القانون؛ كي تصبح عبرة لمن يعتبر..

فَعلتها الشنعاء كانت بمثابة إلقاء عود كبريت مشتعل في بركة من البنزين أحرقت كل شيء. سيدي القاضي، نطالب بتنفيذ أقصى عقوبة على الجاني المنفذ جاسر جمال الدين، وإدراج السيدة وفاء عبد العزيز السيوفي كمشارك في الجريمة.

***

قبل أن يعلن القاضي حكمه، نادى على السيدة وفاء عبد العزيز السيوفي كي تمثل أمامه قائلًا:

- لم يكن هابيل وقابيل قصة فريدة على مدار الأزمان، لكنها قصة تتكرر في كل زمان وأوان..

يحكم القاضي في أي قضية بما يقدم له من أوراق وأدلة، ولا يمكن أن يترك الحكم لهوى النفس..

لكنني اليوم لو أملك الحُكم لحكمتُ عليكِ أن تصبحي عبرة هذا الزمان..

يعيب هذا الزمان.. أنه كلما زاد العلم والتطور استشرى الجهل والفساد مقابلًا له بنسبة أكبر وبصورة أشرس..

نترك الجهلاء يتحكمون في العلم حسب أهوائهم؛ فيستشرى الظلم والجهل والحقد داخل النفوس..

يعيب هذا الزمان إعطاء مَن ليس له حق وحرمان المستحق، عندما يستشرى الفساد ويصبح من حق الشخص أن يعطي لمن يهوى حقوقًا مثل العلاج على نفقة الدولة، وحرمان الفقير المستحق،

فيتركه لقمة سهلة لينة في فكّ الجهلاء المفترسين، يستغلون ضعفه وحاجته لتحقيق رغباتهم الدنيئة. تظهر لنا كل يوم قضية مشابهة لقضية اليوم.. ولن تكون الأخيرة، ما دام الجهلاء يترأسون هذا الزمان.

الجهل لم يكن يومًا مقتصرًا على القراءة والكتابة. الجهل الحقيقي هو جهل بالحقوق. جهل بالحرام والحلال.

الحكم:

قررت المحكمة إعادة عرض القضية مرة أخرى أمام المحكمة؛ لإضافة أوراق وأدلة جديدة قد تُغير من خط سير القضية..

رُفعت الجلسة..

***

تعريف بالكاتبة

جيهان سرور

عضو اتحاد كتَّاب مصر.

مؤسس مبادرة "في القراءة حياة أخرى".

مؤسس مجلة أقلام ناعمة الإلكترونية.

مصرية من مواليد مدينة المنصورة، تخرجت في كلية التجارة جامعة المنصورة عام 2000.

من أعمالها الورقية:

- رواية داليا.
- رواية أمواج الحياة.
- رواية ميراث الحرمان.
- المجموعة القصصية عازف بلا قيثارة.